هل يحبد عبقرية مصلح أم نبي مرسل؟

التأثير بتمولد الرسول حتمية المستقبل وتأكيد الذات

الدكتور محمد شيخاني

يارقية دينية

http://kotob.has.it
الإهداع

إلى الرئي يارب تقي من سوء نورذ الفشارة والروهم في مادة الحياة والموهبة والذين يسع على وجوب في نصرة الأمة ومساعد الفقير. والذين دخلت بي روعات الفقر، لتغسل النور من أذى إله أفعي بنبر التهارف وفترة مستقية ومسالمة

إلى الأمينين الشرفاء الكرمانيين في سبيل الهوى، نحن النبهاء

سمى به الشيخ البشير الدکور

أحمد كفتارو

المفتي العام للجمهورية العربية السورية
نفتذت الطبعة الأولى، وها نحن نقدم للطبعة الثانية بعد عقدين ونفيف قدر الالسنين المديدة كتب كثيرة، واستحقاقات فكرية وتاريخية رائدة وآمن بمحمد إبراهيم أناس كر وعلي رأسهم، روجيه غارودي ومراد هوفمان وموريس بوكاي وآلاف من المفكرين العالميين، كما ظهر فكر معارض يتسم بالزلم والضلال وعلى رأسه، الإسلام بدعة نصرانية لالياس المر، وقص ونباي لأبي موسى الحريري، كل هذا دعائي لإعادة طباعة هذا الكتاب، وجاءت رسائل عدة تطلب نسخة منه، وفي عجلة من الأمر بدأت، وفي كتاب (الإسلام بدعة نصرانية) يقول المؤلف: (محمد بن عبد الله عبقرى من عباقرة العرب، سبق غيره ولم يحاذي أحد فيما فعل)، كون للعرب دولة وصلت حدودها لفترة من الزمن إلى حدود الصين، وقرعت أبواب فرنسا، هو تاريخ كامل بأحداثه، بإنجازاته بسيرته، خلق ثورة دائمة للعالم، ثورة أطاحت ب่มالك، 7
وتيسجان لم يفكر أحد يوماً أنها ستتغيب بمثابة لها  
، ثم يتبع
ليست بدلة واهية أن القرآن استبقى معلوماته من التوراة والإنجيل
والمنتبع لدراسة علوم القرآن يجد أن تحليل القرآن لقصص الأنباء
قد صب في سرد تاريخي للصراع بين الحق والباطل، بين الأنباء
والطواعي الذي حاولوا إعاقة سير الأنباء في طريق واحد باتجاه
الوحدانية الخالص

وقد فضل مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية هذه
الدراسات، ووضوح الفوارق الكاملة بين أسلوب القرآن وأساليب
الكتب المقدسة السابقة.

والمنتبع لدراسة كتاب التوراة والإنجيل والقرآن والعلم
للدكتور موريس بوكاي يجد التفصيل: (أن القرآن هو نص الوحي
المنزل على محمد ﷺ من سيد الملائكة جبريل، وقد كتب في
الحال، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، ردوه أثناء
صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان، وقد رتب محمد ﷺ آياته
في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته وألفت في عهد الخليفة عثمان
(رضي الله عنه) الكتاب الذي بين أيدينا وخلافاً لما جرى في
الإسلام، (إن الوحي المسيحي انبين على شهادات إنسانية متعددة
غير مباشرة...

عبقرية أم نبوة؟ وأين يقع استحقاق التاريخ؟ العقلي مهما بلغ

8

http://kotob.has.it
إبداعه يظل محدوداً؟ أم لنبوة استكمل مكوناتها الله وهيأها لأصعب المهمات، واختيارها لتكون فوق العقل والذكاء والإبداع والاختراق؟

هنا نحن أمام نمطين، أمام عالمين عالم العبرية وعالم النبوة، لكل سماته وآفاقه وكلى أسسه ومنهجه، وكلى غاياته وأهدافه.

لنقف طويلاً متأملين في جوهر الأمور وأعراضها، لندرك الفروق إن كانت هناك فروق ولندرك التشبيه إن كان هناك تشبيه.

العبارة مصطلح ينتقل من المعنى القاموسي إلى المعنى الاصطلاحي ويظل يدور في دائرة الأساس فوادي عبقر هو واد تخيله الجاهليون يسكته الجن ويعوده الكثيرون ليستحووا من جوهر العلم والإبداع وفن الشعر أو الخطابة أو ما شابهما، هو استعادة بقوى خفية يتوهم المرء أنها قادرة على التنبؤ والعطاء الغيبي دون حدود.

ويتسع الناس كل شاعر فذ إلى العبرية، ويرجعون كل مبدع نبغ في علم من العلوم إلى العبرية، ويتلفسف بعض الرجال ويطلقون على ألسنتهم الحكم والأمثال فيعيدون حكمته وأمثاله إلى العبرية.

وينتقل المعنى من سنة إلى أخرى ومن قرن إلى قرن حتى يصبح الناس أقرب إلى إطلاق صفة العبرية بكل مناسبة ووقت دون
حساب دقيق لما تعنيه أحكامهم السريعة.

صحيح أن العبقري مبدع تدوى حدود بعض البشر في الفكر أو الفلسفة أو القانون، فأصبح لديهم نادراً مميزاً ارتفع عن المستوى العادي للبشر لينظر له وينحشي الحكمه في أوقات وأوقات.

والعبقري بكل ما فيها من إبداع وتميز تظل في نطاق المحدود مهما بلغت مربته ومهما بلغت حكمتها، قد تجد في زمن واحد عباقرة عظاماً، ذاك عبقري في الطب والآخر في الفلك والثالث في الفيزياء والرابع في الفلسفة، قد يلتقي الجميع في عصر واحد، يقدمون خدماتهم لبني البشرية.

ولكن.. أليس مخترع القنبلة الذرية عبقري؟ أليس مخترع القنبلة الجرجومية عبقري؟ هل ينكر أحدنا ذلك؟ حقيقةً لا يستطيع أي من الإكبار، ولكن أياناً منا يستطيع أن يستنكر هذه العبقري، ما هذه العبقري التي تدعي لتثبيث البشرية وتبيدها؟ وقد يصل بعضنا الأمر إلى نفي صفة العبقري عن هذا المخترع أو ذاك، وقد يطلق بعضنا عليه صفة الجنون، وكثيرون يعرفون أن بين العبقري والجنون فاصل صغيراً دقيقاً يكاد كثيرون أن يسوّه فيسمون العبقري بالجنون ويسمون الجنود بالعبقري. وما دامت العبقري في حدود الإبداعات فهي إبداع وضعي قابل للخطأ والصواب. فالعبقري إنسان مهما كبر أو عظم، يستمد معارفه من تجاربه الحياتية.
والفكرية ويطرح أفكاره على ضوء ما عرف واستخلاص، ومهما استمد ومهما استخلاص فإن تجريبه تبقى في نطاق المحدودية البشرية، ينقطع المدى عنه في لحظة من اللحظات؛ فيقف عاجزاً عن التواصل وتضمل أفكاره أو ربما تذوب ليستقبل البشر أفكاراً جديدة لعبري جديد، ومهما بلغت العبري عند إنسان فلن تصل حد الكمال أو التكامل وهذه سنة الكون وما تعارف عليه البشر طوال وجودهم على الأرض.

قد تكون البشرية بحاجة إلى العبقرية في وقت من الأوقات، وقد يحتاج شعب مفهور لعبري عسكري ترولي يهمل أبناء شعبه لرد الظلم ونيل الحرية فيتدفع الخطط والأفكار التي من شأنها الانتصار على الأعداء لكن هذا العبري لا يُحتاج إليه عندما ينعم شعبه بالسلام والاستقرار، وقس على ذلك في جميع جوانب الحياة المشعة والمتنوعة.

فالعبري تنتشر صفة التواصل بالعطاء والتجديد والصلاحية الدائمة المستمرة.

هنا كان الفرق ومن هنا يمكن لنا أن نصل إلى نقطة المفصل، إلى نقطة التحول والتوقف وذلك لسبر أعمق المقارنة وتجلياتها.

أين العبري في ميزان النبوة؟ وهل محمد عبري مفكر أو هوي؟ نبي مرسال؟
هل العبقري أمي لا يعرف الكتابة والقراءة ؟ لا نريد أن نجيب عن هذا السؤال لأنه يحتمل الإيجاب والنفي.

هل العبقري يعلم الغيب ويستطيع أن يتنبأ دون احتمالات في الخطأ ؟

لقد بات لنا واضحًا أن العبقري له من السمات والصفات والعطاءات ما ليس لغيره من كثير من أبناء البشر ولكننا لا نستطيع أن نقول إن ماله ليس لغيره من البشر كافة.

ولو رحنا ننظر بين الحق دون تحيز إلى عالم النبوة لوجدنا الأمر يختلف كل الاختلاف في محمد ﷺ ليس عبقياً لأن ما أورده من سمات وصفات لا تنطبق على شخصيته ومسيرة حياته. هكذا قبل كل شيء وله أسباب كثيرة نراها معا على طريق التوضيح.

محمد ﷺ رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة، معرف عصره قليلة بل ضحلة. القراء والكتاب يكادون أن يكونوا نادرين. عقائد قومه خليط من الوثنية والنصرانية واليهودية أمي لكنه يأمر قومه بالعلم والمعروف وينهؤهم عن المنكر والجهل ويحل لهم الطبيبات ويحرم عليهم الخيانة. كيف يأمرهم بالعلم ؟ أليس الأمر أمراً رابياً كما نراه في القرآن الكريم ؟ يقول تعالى : ۚ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بعينك إذاً لارتاب المبطلون ۚ [ العنكبوت : ۴۸ ] ، لقد نفى القرآن الكريم عن نبيه الأكرم تلاوة أي كتاب قبل
نُزُول الوجي وكتابة أي صحيفة عنه ، أوليس من القواعد الدارجة بين العباقرة وأئمة الفكر والأدب أن النكرة في سياق النقفي تفيد انتقاء الحكم عن كل أفرادها وتعطي شمول السبل ؟ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ؟ لقد وضح الله سبحانه صفات هذه النبوة التي تفتقر عن صفات العبقرى كما عهدناها أو عهدها الشعوب . محمد رسول النبي أمي مكتوب اسمه في التوراة والإنجيل ومنموذقبله فيهما بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحل لهم الطييات ويحرم عليهم الخبائث يضع عنهم الإصر ويرفع عنهم الأغلال ، وقد ورد ذلك في سورة الأعراف في الآية 157 .

هذه هي إحدى سمات النبوة وليست سمات العبقرى . ألا ترى معنى أن هذه الصفات خاصة وخاصة جداً ، فأي عبقرى تنطبق عليه هذه الصفات ؟ لعمري إن ذلك محال .

ولو نظرنا إلى ما صرح به القرآن عن الغيب لوجدنا أن الرسول محمد قد تلقي من الله سبحانه ذلك العلم . أخبر الرسول الكريم بالقرآن العظيم أن الروم بعد أن علوا سيعلمون ، ووقع ما قاله القرآن بأقل من عشر سنين ، فغلب الروم ودخل جيشهم مملكة الفرس بإجماع من أهل التاريخ . وكثيرة هي الأمور الغيبة التي أوحى بها الله لنبيه وعلمه إياها ، كعصمته الله له من القتل ، وإخباره في سورتي التوبة والحشر عما سيؤل إليه أمر المناقنين .

١٣
ثم لو توقفنا قليلاً عند القرآن الكريم الذي بلغه رسول الله ﷺ للمسلمين لوجدننا المعجزة تلف عقولنا وقلوبنا ووجداننا ووعينا. لقد قلنا إن العبقرى قد يأتي بالحكم والإبداع ولكن قد يأتي عصر يرى في هذه الحكم تراثاً لا يصح لحاضرونهم، أما النبوة التي سندها الله وقوّي حجتها بالقرآن فقد كانت أمراً آخر مختلفاً.

صحيح أن النبي محمد ﷺ كانت لديه الاستعدادات الروحية والعقلية والنفسية لتلقيّ أمر النبوة غير أنه لم يأت بالقرآن من عنده، وإنما أوحى الله سبحانه بالقرآن لهذا النبي.

ولو كان القرآن من صنع عقله لكان ما صنعه يخضع لقانون الأمور الوضيعة القابلة للتغير من عصر إلى عصر. فالقرآن الكريم الذي نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم واربعمائة سنة ما زال يمدّ الفكر ويتحدد ويدفعه لمزيد من البحث ولا تفتر معانيه وأحكامه، ونرى أن هذا القرآن يتجدد في كل لحظة في عقول العلماء ونفوس الناس ووعيهم.

وبالوازنة بين مآنزل على محمد من آيات القرآن وبين مآتى به العباقرة نجد الفروق واضحة جليّة بل إن بعضنا يجدها من البدهيات والسلهات، فما يأتي به هؤلاء العباقرة والحكماء غير قابلة للخلوع مهما بلغ نضج العقل فيه، ومهما بلغت درجة الإبداع عنه، بينما نرى القرآن العظيم خالداً ما بقيت الحياة ولو لم يكن ١٤
كذلك لرأينا التغيير يلفه ، لكن الله سبحانه تكفل في حفظه وصونه وما يتكفل به الخلق ليس كما يتكفل به مخلوق محدود العقل والوجودان محدود الجسم والوعي.

لقد أتي القرآن الكريم على ذكر الماضي السحيق ولم تحلف الكتب ولا المؤلفات جميعها بما حفل به القرآن من ذكر ذلك الماضي . وأتي بالحديث عن المستقبل ، وما كان لبعقري أن يبنى بمستقبل يطابق التنبؤ تمام المطابقة ، ولا حتى يطابق جزءاً منها .

إن محمدًا لم يكن عبقرياً كما صوره بعض فلاسفة الغرب أو بعض مفكريهم ولو كان عبقرياً لصلح ما أتي به لزمنه ، أو إذا تجاوزنا ذلك قلنا صلح ما أتي به لزمنين أو ثلاثة ولكنه قد لا يصلح لعصر آخر كعصرنا الذي بلغ عقل الإنسان فيه مبلغًا كبيرًا في تصوراته وإبداعاته .

إذا محمد نبي أنته رسالة من السماء خالدة باقية محفوظة ، وما في هذه الرسالة صالح لكل زمان ومكان . لقد مات جسد محمد ويقي عطاؤه حياً ورسالته حيّة تتجدد دومًا ، وحينما نرى في النبوة غير ما نراه في العبرية ؛ فإننا إثباتًا للحق لا يمكن لنا إلا العودة نحو الوراء لنرى أن نبوة محمد ارتبطت بظروف محلية وأخرى عالمية وبسلوكية فردية ومدد رباني وجهاد متواصل في سبيل نشر الدعوة وتبلغ الرسالة .

١٥
إنما يمكن أن نراه من عصر عالمي رافق بعثة هذا النبي ليدل بشكل قاطع على أن العالم كان ينتظر. فالسياحة شُوهدت وربطها المتخصصون بأغراض سياسية بعيدة عن روح العقيدة المسيحية الحقيقة. لقد باتت المسيحية كالفسماء المذهبة التي لا يلتقى فيها لون مع لون ولا مشرب مع مشرب.

أما الفرس فقد بلغت بهم الأمور مبلغ الفساد الشامل. فأنكار تدعو إلى الإباحة وعقائد تختلط فيها عبادة الملوك والثيران والقوى الشريرة الغريبة، وتنتشر الصراعات السياسية والقومية حتى بات القتل والاغتيالات أمرًا يوميًا في أنحاء الإمبراطورية الفارسية كافة.

أما أوروبا وما هي أوروبا؟ ليس لشعوبها ذكر ولا لنورها وجودًا، ظلمة دامسة، تخلف ما بعده تخلفًا، إمارات وممالك على عدد المدن وال泣ال والقرى.

هذا هو العالم السائد عندما شعّ نور النبوة المحمدية من شبه الجزيرة العربية. أليس هذا العالم المتحتك بحاجة لمبعة جديد يعم خيره العالم؟ وهل كان يستطاعة أي عبقري أن يفعل مثل ما فعلت بعثة النبي محمد المفيدة بالقرآن الكريم؟

أما الجزيرة العربية. فهي قبائل متناحرة لا تخلل ولا تحرم بل تقلب الحلال حراماً والحرام حلالاً، وكم من أفراد وقبائل وقعت في الظلم الفاحش، فأفراد يستعبدون أفراداً وقبائل تستعبد غيرها.
وغزرو ومطاردة وتقر وإراقة دماء دونما سبب سوى سبب الظلم والاستعباد والجهل والتدعم. وفي غمرة هذا التخطيط العالمي بحث الطامثون عن الحلول ومكثوا يتظرون الآتي الذي يحظون بهم بحاجة إليه. وظن بعضهم أن ذواتهم هي المؤهلة لاختيار السماء لكن السماء لا يدرك أسرارها أحد. كان الاختيار سباقاً لتصور البشر، لقد كتب في العلم الإلهي الأزلي ولا مبدل لإرادة الله الذي اختار محمدًا ليكون نبي هذا الزمان وآخر الرسول والأنبياء وحاتمه.

وتبدأ حياة هذا الإنسان، طفولة شريفة وشباب متزمن ونشاط ما بعده نشاط. لا إرثان في ذهنه أو نفسه بل توجه للقاء الروحي الذي أراده الله. ويتقدم الزمن فإذا به زوج لسيدة فاضلة تتحب له بنات هن فرحة عينه. يتميز في مجتمعه بالصدق والأمانة والرجولة والشهامة. وما عرف عنه غير ذلك. عرف الفصاحية منذ صغره وغرز البلاغة والبيان في رجولته فأاهر الناس بحسن لغته وخطابه وعقليته.

كل ذلك كان ليكون، ولا أحد يدري ماذا ستؤول إليه هذه الشخصية المميزة الفريدة في مجتمعها. ويتلقى الرسالة ليبدأ مسيرة الأنيباء، مسيرة العذاب والمواجهة والصبر على الشدائد حتى يأدن الله له بأن يهاجر ليبي أول لبنة في دولة الإسلام حيث انتشر التوحيد.
لأنه الحق، ولم تمض سنوات حتى انتصر الحق وعمَّ ودانت العقول الجاهلة للعقل والمنطق، للعلم والتقدم، للإخاء الإنسانية والمحبة والعدل والمساواة، لهدية الناس والشعوب والأمم قاصيها ودائنيها، هذه هي النبوة؛ شخصية مثيرة منذ ولادة صاحبها. عاقلة مفكرة مميزة بين الخير والشر. هذا هو الاستعداد لتلقي رسالة السماء وكيف لا؟ فإن التكامل في هذه الشخصية لا بد له من القدر الإلهي، لا بد له من الرسالة، لقاء السماء بالأرض، آيات من الله لتكون دستوراً أبديةً متجدداً وشخصية مميزة بكل ما يعني التمييز من معنى، تلقي الشخصية بما لديها من ملكات بما تنزله السماء فتحدث المعجزة؛ معجزة الله في شخص هذا النبي العظيم.

هنا تصغر العبقرات بل تضمحل لأن النبوة أولا وأخيراً فعل رباني وليس بشريًا وضعيًا، وهنا أيضاً تتوقف عقولنا لتسأل أين تقع استحاقات التاريخ؟ ألبقر عين النبي؟ حقيقةً ليس لعاقل اختيار، لأن المنطق العقلي يرى أن هذا النبي هو فوق العبقرة ومن حق التاريخ أن يبدأ به ومن حقه أن يبدأ بالتاريخ.

عظمة النبوة تستلزم التنبؤ الخاص جداً، وهذا التنبؤ يعني تحديداً أن يبدأ تاريخنا كمسلمين به، لقد أرخت شعوب كثيرة
لبعاقتها من التعصب القومي أو القومي، وهذا من حقها لأن ذلك يعني انتقاء الوطن أو القومية لها ملامحها، وإنسانية لها شموليتها.

فإننا لا ننطلق من هوية قومي أو وطني، إنما الذي يفرض نفسه كون رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة تخصص كثيراً من القوميات والشعوب وكثيرةً من بقاع الأرض المتارمة الأطراف، والتأريخ بمولده يعني تأصيل وجودنا في قلب قوميتنا أولًا، وإنسانيتنا ثانياً.

إننا معنوباً أكثر من غيرنا بالتاريخ بمولده محمد الرسول فإننا لا ننطلق من هوية قومي أو وطني، إنما الذي يفرض نفسه كون رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة تخصص كثيراً من القوميات والشعوب وكثيرةً من بقاع الأرض المتارمة الأطراف، والتأريخ بمولده يعني تأصيل وجودنا في قلب قوميتنا أولًا، وإنسانيتنا ثانياً.

لأن الصلة التي تربطنا به هي أقوى الصلات وأمتنا .. إنها صلة العقيدة والرُجوع إلى النبى القرآني الآلهي الواحد، ولولا هذا النبي لتشوّمت قيمنا ونشوّه انسبانا، وأصبحت شخصيتنا بلا ملامح، ولعل نظرتنا إلى مستقبل يعيد أجماد أمتنا الإسلامية وعزتها يستند كليةً إلى مبعث النور الإسلامي الذي أرّاه الله أن يكون على يدي خاتم الرسل والأئمة، فلم لا نؤرخ بمولده هذا النبي الذي أرسل ليصنع أمة جديدة بروحها، بماديتها، ليصنع تاريخاً جديداً ويرسخ دعائمه بالذين القوم؟

علبت تلك استحقاقات التاريخ؟ التاريخ الذي نرى فيه شخصيتنا وأمتنا، نرى فيه وجودنا ونواجعنا على أرض عربية إسلامية؟
نعتقد أن كل أمة تمثلك إرادتها وتصوراتها، ولكن أمة حقها في تأريخ حياتها، ومن حق أمتنا الإسلامية أن تفتح للعالم تاريخاً يبدأ بمولد محمد بن عبد الله الذي تجاوز كثيراً العباقرة والمفكرين والمبدعين، تجاوزهم لأن في شخصه اكتملت رسالة السماء ورسالة الأرض; فكان الإسلام العظيم في كل ملامحه وتطليعته المستقبلية.
المدخل إلى البحث

إن مدينة الغرب التي زهت بجمالها العلمي في أيامنا الحاضرة، والتي وصلت بها إلى القمر، وأخضعت العالم بنتائج هذا العلم بدولته وأممه، تعلن إفلاسها الآن وبدأت تتدحر وتتدك أصولها وتتهدم نظمة وقواعدها. فهذه أصولها السياسية تفوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات. ويشهد ضدها ملايين البائسين من العاطلين والمحتاجين. وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان وهذا القلق صار صفة ملزمة للشباب، والاضطراب حالة نفسية عامة لهم، فالفراغ النفسي شردهم، والعمل بلا غاية ولا هدف هدر قدراتهم، وهذا هي المؤتمرات تعقد لحل مشكلات الشباب في كل مكان وإننا لنسمع التصريحات السياسية والاجتماعية دون جدوى وقد حار القوم والحكوماء خاصة في علاج مشكلاتهم وضموا سبيل، مؤتمراتهم تفشل، ومعاهداتهم تخرج، ومؤتمراتهم تمرق، وعصبة أمهم شبح لا روح فيه ولا نفوذ لها، ويد العظيم فيهم توقف مع الغير ميثاق السلام والطمانينة وتلفظ

21
بالثانية من ناحية أخرى أقسى اللطمات، وهكذا صار العالم اليوم
بفضل هذه الأصول والسياسات الجائرة الطامعة كشفينة في وسط
الإيم حار رباها وهبت عليها العواصف من كل مكان، الإنسانية
كلها معذبة شقية قلقة مضطربة، قد اكتوت ببران المطامع
والمادة، وتراجعت فيها روح الإباحية المهدمة للقيم والأخلاق
العليا...

ول قد كانت قيادة الدنيا في وقت ما شرقية بحثة ثم صارت بعد
ظهور اليونان والرومان غربية ثم بعد ذلك نقلت إلى الشرق مرة
أخرى ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة
فكانت القيادة العالمية له وورث تراث العالم واستفاد منه وسماه
باسمه...

وهاهو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغي ويحار ويتحيط، فلم
يبق إلا أن تمتد يد من هذا الشرق العريق بأمجاده، لتعيد الحق إلى
نصبه. وهي في أشد الحاجة إلى عذب من سؤور الوعي الإلهي
ليغسل عنها أوضار الشقاء، وياخذ بها إلى شاطئ السلام كما كان
في المرحلة الأولى من مراحل حضارة أمتنا... التي كانت مظللة
بوحية الله، وتحقق على هاماتها رأية القرآن يحدها جند القرآن
بإيمانهم وسلوكهم وثباتهم على الحق...

لم يكن هذا خيالاً بل واقعاً عشنا في ظلاله ومازالت أمتنا العربية

22
والإسلامية تتغني بامجاده التليدة وإن حكم التاريخ الصادق ليشهد لنا ... وما هو جوابنا اليوم؟ إن الجواب لهذه العاصفة الهوجاء التي تهب على أمن العالم واستقراره كائن في وحي الله ... وواقع العالم اليوم لا يختلف عما كان عليه في غابر الزمان عندما وصلت الإنسانية إلى ذروة الضياع والفساد، وإذا بالوحي يهبط وتتصل السماء بالأرض لتتلد الحيارات التأثرين ... وبالفعل دلتهم السبيل القويم، وهدتهم الضرات المستقيم فشيدوا حضارة وبنوا مدنية، ورفعوا للحق راية وسطروا لللبق مجتمعا تتعكس من خلاله المثل جلية متكاملة. هذا الوعي قد ترك للإنسانية ما يعثثها إذا رقدت، وما يحرك نوازع الخير واللياقة فيها إذا كبت وركعت للضياع مرة أخرى. وإذا لنا نشهد كبوة العالم ووقاد الإنسانية وانحرافها وحيفها وانحلالها ولا باعث للإنسانية من كبوتها الأخلاقية إلا وحي السماء ولا متحرك لجهود التصحيح إلا حبل مدل من الذات العليا فلتنتصمه به إذا أردنا بلوغ المقصد، ولنshield عرى مجتمعنا بأطانبه ليرفع كابوس الرقاد والإباحة والهووان عن أمتنا ... وعلينا إن أنعمنا النظر في العالم أن نلتفت إلى الحكماء والفلسفة فهذا المؤرخ الفيلسوف الكبير أرنولد تونبى يقول في كتابه ( الحضارة في الميزان ) : لقد حاول كارل ماركس أن يوجد الدولة في أعلى قيمها عن طريق نظرياته المعتمدة على المادية ...
التاريخية فما استطاع ذلك . وحاول قبله هيجيل رائد الفلسفة المثالية خلق الدولة المثالية في عالم الواقع بنظرياته المثالية فما أمكنه تحقيق ذلك . وفكر آدم سميث بإيجاد الدولة الفضلى بنظرياته الاقتصادية الحرية فما حقق ما أراد وما بلغ مقصده ولكن محمد بن عبد الله ذلك العربي استطاع إيجاد الدولة في أعلى قيمها وأشمل مثالياتها الواقعية لأنه اعتمد على عنصري الإنسانية وهما المادة والروح فننجح حين أخفق غيره وما أحوال العالم إلى تكامل المادة والروح في عالم الواقع ! ولا يتأس إذا أصلخنا السمع وأطلعنا النظر في أحرف ردها برناردشو حين قال : ما أحوال العالم إلى رجل كمحمد ليحل قضايا العالم وهو يشرب فنجانا من القهوة . بعد هذا كله ... فلنسأل أنفسنا وصراحة ... هل محمد رسول؟؟ هل يوجد وحي إلهي ؟؟
ما هي حاجة الإنسانية إلى الوعي ؟
ما هي الأدلة العقلية للبرهان على نبوة محمد ؟
أيحق لنا عقلنا أن نصدق كل من ادعى النبوة ؟
ما هي مميزات النبوة الصادقة من النبوة الكاذبة ؟
ما هو دور الوعي في المجتمع وما أثره في الحضارة ؟
لكن صرحا مع أنفسنا مع المثقفين مع التاريخ الإنسانية وهذه أسئلة ترد بعد سؤال ناقشنا الفلسفة منذ أسطو
مرورًا بالإنسانية وانتهاء بآخر إنسان يعيش على وجه هذه البسيطة ، وذلك السؤال قد أجيب عنه بكتاب صدر وهو ( هل الله موجود ؟) وإن نظرة واقعية للصراع الفكري العقائدي لندعونا إلى بحث هذه المعضلة ولا عجب أن يطرحها الفكر في عصرنا لنجد لها الدليل العلمي الواضح مع العمل على إثارة المناقشة حول المواضيع المرتبة حسب أهميتها ، لما في التسلسل من نتائج جيدة فإن الإنسان بالله ضروري لإنسان يريد مناقشة الإيمان باللبيحة ، ولذا كان هو المنطلق الأول لهذا البحث .. فما هذا المخطوط المتواصل رديفًا للبحث الأول ومكملًا له وإن الخوض في هذا البحث الشيق ليدعوني إلى بعض التفصيل فبالباب الأول يشمل الفصول التالية :

1 - العالم قبل بعثة محمد .

2 - الجزيرة العربية قبل البعثة .

3 - لمحتات عابرة من سيرته .

4 - هل تحتاج إلى الوحي ؟

والباب الثاني ويشمل مجموعة من الأدلة العقلية والشهود الحضارية والعلمية على نبوة محمد بن عبد الله .. وسوف يتم كل ذلك بفكر موضوعي بعيد عن العاطفة الدينية ، مرتكزاً على المقدمات المنطقية التي يعتمد عليها كل إنسان يبحث عن الحقيقة الأبدية ، ولا شك أنه يوجد في الإنسانية راغبون في الحق ، ديدنهم.

25
المنطقة السديّد وهم الذين سئنتقي معهم في نهاية الدروب الوعرة.
وأما الذين ملكت العصبية الفكرية قلوبهم، وأعمتهم التقاليد التي
عاياشوا مترفين في ظلالها فأسدلت الغشارة على عقولهم فأبوا إلا
ما هم عليه مردين يشاهدون(1) من كان قبلهم ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ
على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون
فأولئك ليسوا طلاب حقيقة ولا يملكون كرهّ البحث والمناقشة
وما أكثر هؤلاء الذين يقرؤون ولا تفيدهم القراءة إلا إعانا في
قديمهم لخور في إرادتهم وجمود في عقولهم.

أخي القاري:
جرد عقلك من أوضاع القديم المستجد في نفوس التائهين
وحرر فكرك من آثار البيئة الملتوية بالإباحية، وانطلق في هذا
البحث لغاية المناقشة الحرة التي توصل إلى الصواب فإن بلغت
الغاية التي بلغت بها في نهاية المطاف فقد التقينا في البداية والنهائية
ولا استمر كل منا في منحاه وتابع مسيرته حسب تقاليد الممسكة
لتأليف دماغه لا يريد حقاً ولا يبحث عنه وأرجو لك المتعة
والقبول في هذه المناقشة الحرة.

(1) يقلدون.
الباب الأول
الفصل الأول
العالم قبل البعثة

عالم يتداعى يشارف منتهى أجله، ويسرف في متاهات الضياع، لقد بلغت البشرية فيه الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشيّت العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض. فالحضارة قد جمدت روح الحياة في عروقها، ولا عجب فقد بلغ العقل البشري منتهى عجزه في حل أزمة الإنسانية الممزقة...

بيزنطة

انتشرت فيها مسيحية مشوهة بأغراض سياسية، وقد شاحت، بعد شباب وبدأ م جداً ينزوّي رويداً، وتعدّدت مذاهبها، وانقسام كل مذهب إلى فرقة وحرب وتنكرت كل فرقة لغيرها، واضطرمت نيران العداوة فيما بينها.

دب الخلاف، واستشرى الضعف الخلقى والذهني، مما أدى
إلى الولوع بالجدل العقيم حتى قال أحد رهبان الكنيسة يصف
أحوال بعض المدن البيزنطية:

"كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل، ترى ذلك في
الأسواق، وعند باعة الملابس، وصيارة النقود، وباعة
الأطعمة، فأن تريد أن تبدل قطعة من ذهب فإذا بك في جدل عما
خلق وعما لم يخلق. وأنت تريد أن تقف على ثمن الخيز فيجيبك
من تسأله: الأب أعظم من ابنه، والابن خاضع له. وأنت تسأل
عن حمامك، وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك: لقد خلق الإنسان
من العدم"(1).

وعقدت المؤتمرات اللاهوتية في هذا المسائل الجدلية
العقيمة الكثير فلم يكن بإمكانها الوصول إلى كشف غواوضها.
وامستمرت تذو القلب وتأخذ القصور. فصار الجدل عملاً عليها
وتبادلت سطوةها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي
بجوارها.

ولم يكن أتباع النصرانية على استقرار في عقيدتهم، ولا على
ثقة بأحبارهم وأئمتهم، واستحكمت الأهواء، واشتد القذف بينهم
بالمرور والشفر والضلالة، وذلك للخلاف حول المسيح وأمه...

(1) الرسول/ محمد حسين هيكل.

28
حوالِ الأقانين الثلاثة ونشأت الفرق الكثيرة وتباعدت الأقوال بينها فالآريوسية تقترب من التوحيد والسماوية تقارب من الطبيعة الإلهية .. ومما زاد الأمر تعقيداً اشتداد البللة السياسية ومنازعات العروش والقتال المستحدث بين الطوائف .. ثُلَّ هدوء ، ولا استقرار ، ولا سلام ، ولا أمان من السياسة ولا من رجالها ولا من الدين الذي غير المنحى الذي وجد عليه ولا من رهبانه ولا أمن من الأخلاق في ذلك الواقع المتخلف الممزق ..

لقد ران على الأقانين ظلام إثر ظلام وطويل العقول في غياء الشروط المشتت ، شرك يشوه توحيد يزعم أنه يحارب شركاً محضاً ؟ حتى كان من بين الطوائف المسيحية في تلك الفترة من ينكرون أن ليسى جسداً يزيد على طيف يتبذى به للناس .

الفرس

قد سخر المجوس من عقيدتهم ، وكمنت حول أحبابها كوامن الغيلة واضطرمت فيها الفتنة ، وتحكمت الأهواء ، وصارت قدرة فعالة ، وغاض فيها ماء الوفاء ، وبلغ الضياع متهماً . لقد انتشرت فيها أفكار ( مزدك ) داعة الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض وأخذ يغالي في الشنوية ، ويؤكدها في النفوس معتمداً على الهرطقات والنزاعات الروحية الملتوية ، وقد استطاع إقناع قباض ( والد كسري أنو شروان ) ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس
صدقة في إيمانه ، وتقيدوا به في ترك الأعراب ، ليجعلوا نساءهم مباحات وكل هذا يستمر في ظل العقيدة المجدوية التي تجمع الأرواح والشياطين ، وتقارب بين الظلام والنور وهذا يدل على الدرجة التي وصل إليها العقل البشري من الانحطاط والضعف والجمود ...

عالم يعيش على شريعة الغاب ويتخطى في عقبات الظلام ، قتال دائرة بين الشرق والغرب ؛ والإنسانية آنذاك تمر في خط منكسر تتقلب على جمر الفرقه والظلم والفقر والجهل لا قيمة للإنسان ؛ ولا مكان إلا لحاكم قوي ؛ ولقد صور أحد الفنانين منظراً يمثل واقع الإنسانية ؛ مثلها بصورة كثيبة سوداء ، كسفت فيها شمس الحياة والسعادة ؛ وعلت عليها سيف مقطرة بدماء الأبرياء ؛ لقد اكتوت النفوس بالجاهلية ، المميتة ، وخيمت على الدنيا ظلال الاستغلال والقضاعة وذا تكون الإنسانية قد بلغت الذروة الأسوأ من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلامات كثيفة من الجهل والانحلال والأباطيل ، وعبدت الجمادات والنيران والحيوانات ، و قدست الملائكة والجن والشياطين ، وخضع الناس لأرواح الموتى ومظاهر الطبيعة بخنوع وذل .

عالم خلابة ما يقال فيه ينتظر المصلح ؛ ويتظر شيئاً خفياً ...

٣٠
وقد وصف الشاعر العالم آنذاك قائلاً:

فعاهل الروم يغطي في رحيته
وعاهل الفرس من كبر أصم عمى

أوربا

كانت في غيامب النسيان، تمرح في محاربة القبائل المهاجرة من الشرق، وتضطرب في الدفاع عن مدنها الصغيرة الشبيهة بالمدن التي ليس لها ذكر في القرن العشرين وأجمل ما يقال عنها في ذلك اليوم أنها قارة موجودة في الكورة الأرضية بحقيقتها مفقودة بروحها ومشاركتها للصراع بين الروم والفرس آنذاك وهذا يدل على مدى الانحطاط العام الذي كان يكتنفها...
الفصل الثاني
الجزيرة العربية قبل البعثة

عاشت الجزيرة العربية حياة يحيط بها الغموض من الناحية الاجتماعية ونستطيع القول بأن الجزيرة مرت في فترة ركود لا تعرف للنظام معنى ، ولم يسمح التاريخ بوحدتها واقعياً إلا عندما أنشئت من أصل واحد ، حروب دائرة ضروس ، نهب وسلب ، إباحية واغتصاب حتى وصلت في القرن الخامس الميلادي إلى ذروتها وما نقله ابن قتيبة : بأن زراعة قد تزوج ابنته وأن لقيتها ابنه تزوج ابنته دخنتوس أيضاً ومات عنها وهي حليلة له.

وارتكتبت الفواحش باسم الوثنية وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . وعبدت الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل والأشجار والكتبان ... فكان إيمانهم بالله مشوباً مضطرباً لا وضوح فيه ولا استقامة . واتخذوا الأوثان لتقربهم إلى الله زلفي وكانت أحكامهم في أكثر شؤونهم قائمة على الظن.
والتخمين لا على الحق واليقين وآمنوا بالنافل والطيرة والكهانة والعرفة وكان لهم فوق ذلك خرافات عجيبة وخزعبلات تدل على ضعف في الفكر وركود في المعرفة.

يحرمون ويحللون دون قيم ولا حكمة ولا مراع إلا التقاليد المتوراثة عن أجدادهم ولم يعرفوا لها مصدر إلا الآباء والأجداد.

"إنا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون.

وأما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوي للضعيف وتحكم القادر في العاجز، واعتمدوا على القوة وحدوا في انتزاع الحق سمتهم الواضحة الأخذ بالثأر وحرب الانتقام وما حادثة داحس والغرباء وما آلت من نتائج على القبائل المشتركة فيها بغربي التي استمرت ما يزيد عن أربعين سنة وقدرت النفوس التي أريقت دماؤها بما يزيد عن مائة وأربعين ألفاً من صناديد العرب، وتلك الحرب الثانية التي عرفت بحرب السوس هي المعركة التي جرت من أجل ناقة وقتل من أجلها الألف... كلهذا كان في الأمة العربية قبل النهضة الجديدة... وأما في الحضور فكانت تجري الدماء بين الأوس والخزرج، يشعلها اليهود ويوقد حقدها التعصيب القبلي الأعمى... وهذه الحروب جميعًا تدل دلالة بينة على روح العصر والهمجية الواقعة بين البدو والحضر وفي كل أرجاء الجزيرة آنذاك... كهذا كان في الجزيرة العربية دون...
أن تخضع للروماني أو الفرس على الرغم من المطامع التوسعية لديهما وكان رجل الدين يبذلون ويشرون العقيدة في هذه الجزيرة ولكن دون جدوى، وظلت كأنها واحة حكيمة آمنة من الغزو إلا في أطرافها، آمنة من انتشار الدعوات الدينية إلا في قليل من قبائلها، وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة.

وقد كان للمعرب في عبادة الأوثان أفائين شتى يصعب على المؤرخين الإحاطة بها لأنه كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة بل كان أكثرهم يتخذ صنمًا أو نصبًا خاصًا له في بيته يطرف به حين خروجه وساعة أوبته، ويأخذها معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر، وهذه الأصنام جميعًا سواء أكان في الأماكن العامة أو في الأماكن الخاصة، فإنها تُعدُ الوسط بين عبادة وبين الإله الأكبر، ولذلك كان العرب يُعدُون عبادتهم لها زلفي يتقربون بها إلى الله وإن كانوا قد نسوا عبادة الله لعبادتهم هذه الأصنام.

أما حياتهم الاجتماعية فمن مظاهرها الظلم وخاصة للمرأة فهي في نظرهم نوع من المتاع فلم يكن لها نصيب من الميراث، بل كانت هي نفسها تورث مع التركية وكان للوارث منها مطلق التصرف. فإن شاء زوجها، وإن شاء زوجها من غيره، ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود، فلرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء، وله أن يطلق المرأة متي شاء ويرجعها متي شاء، فلا هي زوج لها ما للزوجة من حقوق، ولا هي مطلقة تملك أمرها.
وحيتها ... إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال.
وبعض الجواري كان يرغمن على كسب المال بأعراضهم إرضاء
لسادتهن.

وكانت الأنشى على العموم مجلة للحزن، وعظمة العار، فكان
العربي يحزن أشد الحزن إذا ولدت له أنشى، وبعضهم كان يند
البنات مخافة العار والفقر، وكان الاتفاق يجري عند عقد الفران
أحياناً على قتل السلالة من البنات.

وكان الربا والخمر والبئس من ضروب حالاتهم، وكان
السكر والعريدة وانتهاك الأعراض من المفاخر التي يتبغون بها في
أشعارهم ومجالسهم، وكانت الليرة والمعروف أسمى ما يصفوه
نفسهم، همهم الطعام والشراب وانتهاب اللذات قبل أن يدركهم
الموت. على الرغم من كل هذا كان في العرب فضائل عصرية،
وطباع كريمة، وسجاحا ذات وزن كبير في مقياس الرقي الإنساني،
من ذكاء ونبل وشجاعة ووفاء وصدق وكرم إلى غير ذلك من المزايا
الكثيرة المشهورة في الأمة العربية. ولكن لم تكن كل مزاياها
المعروفة لتمتع قيام حياة جاهلية صماء وخاصة في عقليتها ودينها
وعاداتها لأن تلك المواهب العنصرية والسجاحا الحميدة التي
وصفتها لا خير فيها إذا لم توجه توجيهاً تربوياً صالحاً، ولم
تسخر لها الأيدي الطيبة لتسخرج منها ينوعاً للفضائل العملية وبذا

٣٥
كانت الأمة العربية أشبه بالأرض الطبية التي أهملت زراعتها فنبت فيها الحشائش والنباتات الضارة. ويمكن القول بأن تلك الفضائل كانت فردية آنية مدفوعة لم تستمر في حينها. فأنجبت لنا نبات الحقد والعصبية والنهب والسلب ولم تخرج أزهر الوفاء والقوة والوحدة والانطلاق. ومن قبل التكامل في الصراع نجد أن المسيحية واليهودية قد انحرفت آنذاك عن أصولها فهاهم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى لا يقولون في فسادهم عن الوثنيين فهناك شوب من الشرك يشوب عقائدهم، وكثير من السينات تنفس أعمالهم.

وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، لبست ما كانوا يعملون! لولا يتهالى الرمانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبست ما كانوا يصنعون! بل إن كثيراً من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

فهذا الجهل الذي أفسد دينهم وزلزل عقائدهم، وهذه الخرافه التي سيطرت على عقولهم وقلوبهم؛ وهذه الفوضى التي سادت نظمهم وتقاليدهم، وهذه البهيمة التي صبعت حياتهم وهذه العداوة التي مزقت وحشتهم وتلك الحرب التي أظهرت قواهم وتلك الجهلة والضلالة العميقه هي التي جعلت نفراً من

36
حكمائهم يفكرون في أمر دينهم، ويتساءلون فيما بينهم، أهذا الأوثان آلهة تنفع أو تضر، أهذا هي الحياة المثلية التي تليق بالإنسان؟ أخلق الإنسان ليأكل ويشرب ويقضي حاجاته وشهواته وكفى؟ وما الفرق إذن بينه وبين الحيوان الأعجم؟ ..
وجعلوا يتلفتون إلى ما حولهم لينظروا أي دين هو أهدى إلى الصواب، وأقرب إلى الحق، أهو دين النصارى؟ أم دين اليهود؟ أم دين المجوس؟ ..
أما المجوس فهم والعرب سواء في ضياعهم وضلاليهم وأماليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وترقوا واختلفو وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ..
اختزوا أحبائهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .. وسارعوا كما يسارع غيرهم في الإثم والعدوان وافتراء الكذب .. إذن فليس اليهود والنصارى على شيء فأين الذين الحق الذي يصل بالإنسان إلى مدارك الكمال؟ ..
كانت هذه الحيرة تشغيل بالفكر من حكماء العرب وعقلائهم، فداروا يبحثون عن عقيدة تشفى غليل نفوذهم وتروي ظمامهم الروحية والأخلاقية والاجتماعي، وذكر ابن إسحق أن قريشاً اجتمعت يوماً في عيد لهم، عند صنم من أصنامهم كانوا

٣٧
يعظمونه، وينحرون له ويتوافون به، فخلاص منهم أربعة نفر يتناجون، وهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن حشان وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفیل فقال بعضهم لبعض: أعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين، فإنكم والله ما أتنم على شيء! فتفرقوا في البلدان يلتمسون لأنفسهم الدين الحق.

هكذا كانت حالة العرب، وهكذا كانت حالة العالم كله، دنيا تلفظ أنفسها الأخيرة. أمم اتخذت الذئب راعياً والرذيلة مذهباً إلا قلة قد عُدت عن الانغماس في الإباحة وما أجلها لو حملت لواء الحق آنذاك لتنتشر بين الإنسانية التي تمر في فترة الطفولة...

فعلام يطلع إلى المصلح وأمة عربية تنطبع إلى المصلح وإنسانية تنطبع إلى المصلح.

* * *

٣٨
الفصل الثالث
لمحات عابرة
من سيرة محمد بن عبد الله ﷺ

ولد محمد ﷺ في مكة في عام 57 هـ من والد ينتمي إلى أسرة عريقة في مكة(1) يسمى عبد الله وأمه آمنة بنت وهب وجدته عبد المطلب كبير قومه وسديهم، ومن الموافقات الجميلة أن يلهم عبد المطلب تسمية حفيده محمدًا، وإنها تسمية أعين عليها ولم يكن العرب يتألفون هذه الأعلام في ذلك سألوا: لم رغبت عن أسماء آبائه وأجداده؟ فأجاب: أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض فكانت هذه استشفافاً للغيب فإن لا يوجد في الإنسانية من يستحق أزواجه الفكري والإلهام كما يستحق ذلك المحترم لما أسدى للإنسانية من خير عميّم. مات والده وكان

(1) نور البقين ص 89
في بطن أمها، لم ير الحياة بعد، ومن ثم ماتت أمه وهو في السنة السادسة من عمره، وعاش في كنف جده محاطاً بحنانه وبره.

ولكنه لم يكد يبلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده بعد أن أوصى به عمه أبا طالب، فحزن محمد لموت جده جزنه لفقد أمه واستمر في بكائه حتى شيع جده إلى مقره الأخير (١) ترك له والده خمسة من الإبل وقطيعاً من الغنم وجارية هي أم أيمن حاضنته بعد موت أمه، ويمكننا القول بأنه عاش عيشة اضطرته أن يعمل ليسد رمقه، ولا شك أن العمل لطفل في سننه وبيته المكية هو الرعي. وامتده به العمر حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فسافر مع عمه في تجارة إلى الشام ولا يهمها ما حدث له من لقاءات سريعة خاطفة، وبدأ يظهر اسم محمد في عدة أمور منها:

١ - حرب الفجار: اشترك فيها أشراكاً فعلياً فمن المؤرخين من قال بأنه عمل على جمع السهام، ومنهم من قال بأنه اشترك برمي النبل، ولا شك أنه عمل بالاثنين معاً لأن الحرب استمرت أربعة أعوام متتالية (٢).

٢ - حضر محمد حلف الفضول وكان ينص هذا الحلف على حماية المظلوم حتى يؤدي إليه حقه وكان يقول فيه ( لقد شهدت في

(١) الحقيقة المثالية.
(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول ص ١١٠.
دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي
به في الإسلام لأجبت ) .

وانتشرت حياته على شاكلة تختلف عن غيرها من الشباب
الذين يعاصرونه ، ونشأ نشأة غريبة بين قومه ، إذ لم تغمره البيئة
بتقاليدها ، ولم تعله العشيرة بعاداتها وطاعاتها ، فما رأى عنه
في أيام طفولته الأولى أنه قلد القائمين على أمره في تقديس اللات
والعزى ، وما ورث الهيئة التي كانت له في نفس قريش ، و
عرف عنه أنه رفض أقل ما ذبح على النصب كما رفض عبادتها
وتقديرها ، واستمر نظيفاً طاهراً في روحه واعتقاده ، لم يفوت بذله
كما لم تتلوث عقيدته ... النقيّة الطاهرة . ولم تحمله صولة
للشباب ، ولا ميزة الصبا على معايرة الخمر ، ومنادمة الرفاق في
مجالس اللهو التي كانت منتشرة إذ ذاك في نواحي مكة بين أوساطها
المختلفة بل إن اللهو البيريء لم يتخذ طريقه إلى محمد - والنسر في
ذلك أن دور الشباب عنده اقترن بمرحلة التفكير والحيرة التي كانت
مخيبة على العصر الذي وجد فيه ، فكان كلما هم بحروب اللهو
والمتاع - كما يمكن أفراده - داهمته أفكار وتأملات ملأت كل
جوانب نفسه ، وشغلت قلبه ، وبدأ له البيت العتيق ، وقد تكدست
في ساحة الحرم ثلاثمائة وستون صنناً جلبى من أنحاء بلاد
العرب . وتحظى كلها بالتقديس والعبادت ... وهكذا يجري
الصراع بين الواقع الأليم وبين صفاء فكره ... وعاش في دوامة من

41
الفكر... ولم يجد حلاً على الرغم من طول التفكير وعمقه، وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقًا... .

ومنها زاد من حيرته حياته المستمرة مع الطبيعة واشتد صراعه مع الحقائق، ولكن لم يجد الجواب الشافي لاستقرار النفس، فكان يظهر في حيرة مشغلة له دائماً...

هذه صفاته الخاصة التي تتجلى من نظركته وحياته...

وأما مع بني قومه فكان أفضل قومه مروءة، وأكملهم خلقاً، وأكرهم مخلائلاً وأحسنهم جواراً، وأصدقهم حديثاً، وأبدهم عن الفحش، وأعظمهم حلاً، وأكثرهم أمانة، حتى كان يلقب فيما بينهم بالأمي، يدعون عنده ودائعهم، ويعتكمون إليه فيما حل بينهم، ومنها حادثة تجديد بناء الكعبة التي تمت مكانته وحكمته ونجلته عندهم، فعندما أرادت قريش تجديد بناء الكعبة بعد إصابتها بالسيل وتصدع جوانبها... اشترك في ذلك رجالهم ونساؤهم فكان محمد يزامل عمه العباسي في نقل الحجارة... فلما بلغوا موضع الركن - وهو الحجر الأسود - أرادوا أن يضعوه في مكانه، فاختلفوا: أيهم ينال هذا الشرف العظيم؟... وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإجلال والتقدير لا تدانيها منزلة، واشتد بينهم الخلاف حتى هموا أن يحاربوا لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكموا بينهم في هذا الأمر، أول من يدخل...
عليهم من باب المسجد، فارتدوا ذلك الرأي واتفقوا عليه، ووقعوا ينظرون أول داخل عليهم من ذلك الباب، فكان محمد بن عبد الله ففرحوا به جميعًا واستراحوا لرؤيته، وقالوا: هذا الأمين رضيناه!!

وكان قد عرف بينهم بسداد الرأي، وصواب الحكم، فقصوا عليه قصتهم وأخبروه بما كان من أمرهم، فقال "هموا إلي ثوباً فجاءوا بالثوب، فأخذ الثوب فبسطه على الأرض، ثم أخذ الحجر فوضعه في وسط الثوب، ثم قال "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم أرفعوه جميعًاً، فوضعه بيدته في مكانه ثم بني عليه".

تجارته لخديجة وزواجه منها:

وكان يرعى الغنم في أودية مكة قاتعاً بنصيبه من هذا العمل على قلته ومشقته إلى أن بلغ خمسة وعشرين عاماً، فحاول عمه أبو طالب أن يوجده له رزقاً أكثر من رعي الغنم، فقال له: يا ابن أخي قد اشتد الزمان علينا، وألحت سنون متكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عرب قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون بمالها، فلو جثتها فضلتنك على غيرك، فقال محمد: لعلها ترسل إلي في ذلك؟ ولكن خديجة بلغها ما دار بين محمد وأبي طالب من محاورة فأرسلت إليه، وجعلت له ما كانت قدرته لغيه لما بلغها من صدق حديثه.

http://kotob.has.it
وعظم أمانته وكرم أخلاقه(1) وهكذا سافر في تجارتها وآرسلت معه غلامها وريث لها الكثير واستطاع بجمال أخلاقه وبنبل عواطفه أن يحمل ميسرة على حبه واحترامه وبالتالي نقل كل ذلك إلى خديجة، وارتفعت منزلته عندها، وفعل كل ذلك في قلبيها ما فعل من حب وإجابات بالإضافة إلى ما أشتهر به من صفات الأمانة والصدق والوفاء والمرومة والشهامة. وازداد إجابها بكل ما سمعت عن هذه الرحلة حتى اختُلقت قلبيها في حبه، وفكرت بالزواج منه على الرغم من رفضها لكل سيد من قريش تقدم للزواج منها، لأنها كانت تحب الفضائل فوجدت في محمد صورة مائلة للكمال، ونحوها حياً للفضيلة في كل ما يأتي وما يدع.

عملت لجذبه بالزواج حتى قبل وهو مغتبط، قرير العين، وتم أمر الزواج، بحضور عم خديجة عمرو بن أسد وبعض أعمام محمد بزعة أبي طالب الذي خطب في هذه المناسبة خطبه المشهورة وهي:

الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيته مهجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكيم على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه ثم.. إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس به إلا عظم عنه،

الفتح الإسلامي للشيخ فخر الدين ص 25.

http://kotob.has.it
وإن كان في المال قل، فإن المال رزق حائل، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيهم مثل ذلك (1). واستمر في حياة زوجية هادئة مع شريكة حياته، في ظل من التفاهم والتعاون المتكاملا.

حياته قبل بعثته:

عاش حياة فيها القلق الفكري والنفسى، فالفكر أخذ منه كل مأخذ، يفكر ملياً عندما رأى الحياة في اضطرابها، والعبادات الورقية التي لم يقبل بها يوماً من الأيام. فقد ازدادت سفهًا في نظره، وقارب محمد بن عبد الله الأربعين من عمره، وهو على إطرافه العمق وتفكيره المتواصل في صمت يلفت النظر، فأحب الابتعاد عن ضوضاء الحياة ومشاغلها فالتجارب إلى الغار ليخفف من جبلة الحياة حوله، ويلتمس في الخلوة والتفرغ الحقيقة المنشودة في خلده، ويبحث في عمق عن الحق والهدى ... 

وتلقت روحا فيما وراء المادة، فتجلت على القلب بوادر المعرفة، ومنها الرؤية الصادقة فصار ما يرى رؤياً إلا جاءت كقلق الصبح، وبدأ يزداد بغضها لما عليه قومه وتزداد عوامل الشك والحيرة في أمر إنقاذه من الاضلاع الذي استعصى على الهدى

(1) سيرة ابن هشام.

45
علاءه، فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائبة شر مصيبة! وهذه هبل واللات والعزل ... وكل هذه لم تخلق شيئاً. فكان يسأل نفسه: أي الحق إذن؟! أي الحق في هذا الكون النسيجي بأرضه وسموته ونجومه؟! أي هو في الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والذروء ... لا، فما هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور إلا أفلاك كالأرض سواء بسواء. إذن هل وجدت هذه العوامل مصادفة؟! الجواب لا ... (1) لقد كان يفكر ويتأمل وينشد المعرفة، لا استلهم الحقيقة الأبدية واتجه بعد كل هذه الفترة من الحياة الحائرة إلى الله بصفاء السريرة ونقاه الروح وتهيؤ الفكر. اتجه إلى الله بشكل قوي بعد الكثير من الرؤى الصادقة التي تواتت عليه ... اتجه بكل روحه إلى اعتزال قومه بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال، فصار يقوم الليل مرتفع الذهن والقلب، ويطيل الصوم، وتزداد التأملات ويعيش في اشراقات ووضات عميقة في خلوة روحية ...

وازدادت رؤاه حتى خشي على نفسه من شدة التفكير ... وبلغ الفكر أوجه، والروح نضبت وسمت حتى بلغت مرحلة التحمل .

(1) الجواب: يوجد في كتاب هن الله موجود، وكتاب العلم يدعو للإيمان، وكتاب الله يتجلى في عصر العلم.

46

http://kotob.has.it
للعبة الطقبل إنه حمل الرسالة الكبرى.

وكان تلك الليلة الليلة فاتحة عهد جديد، وبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الإنسانية كافة، تغير بها وجه التاريخ، وتطورت حياة العرب تطوراً عجياً، واتجهت البشرية في عقائدها وعباداتها وأخلاقها نحو الحقيقة المنشودة عند كل حكيم عاقل ... فجاءه جبريل وهو في الغار وحيداً فقال محمد عن نفسه:

فجاءني وأننا نائم بنمط من ديباج في كتاب فقال: اقرأ ... قلت: ما أقرأ! فغنتني (1) حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ ... قلت: ما أقرأ! قال: فغنتي حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ ... قلت ما أقرأ! قال: فغنتي حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم» قال: فقرأها ثم انتهى فانصرف عني وهبت من نوحي فكأنما كتب في قلبي كتاباً ... وقال: فخرجت، حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتاً من السماء يقول:

( يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل).

وبدأت بعد ذلك دعوته، وأنزل عليه القرآن وآمن به الكثير

(1) كذا في الأصول والطبري والغت: حبس النفس.
وكفر به الكثير وبعد هذه اللحظة الخاطئة من حياته علينا أن نناقش فكرة الوجي على ضوء المنطق السليم والفكر المتكامل. ومن ثم نناقش بأدلة علمية منطقية صدق الرسالة والرسول لنجيب عن السؤال: هل محمد رسول؟
الفصل الرابع
الوحي وماهيتة، وهل نحتاج إليه؟

إن الإنسان الذي وصل بعد بحث عقلي عميق إلى الإيمان بالله عز وجل، يجد مشكلة ثانية تتوقف بإثارة أسئلة عدة... والكثير من العلماء المفكرين المنصفين في مجتمعات العالم اليوم قد برهنا للبشرية و فمنطق سليم عن عمق إيمانهم بخلق الكون وعلى سبيل المثال رئيس أكاديمية العلوم في الولايات المتحدة الدكتور كريسي مريسون وأستاذ السوربون ورئيس قسم العلوم الفيزيائية الدكتور ليكونت دي نوي، وكتاب الله ينجل في عصر العلم الذي كتب فيه ثمانية وعشرون من علماء العالم بسيلة عقلية لبدله دلالة واضحة لمن يريد الحق على عمق الإيمان وكثره أدلهة...

وعلى الذين بلغوا هذه المرحلة أن يعموه بأسئلهما الثاني: ما هو الوحي وما دور النبي؟ وهل نحن بحاجة إليه وماذا يزيد الوحي على العقل؟ وهل الإيمان بالوحي متمم للإيمان بالله؟

49
ماهية الوحي

المعنى اللغوي: ( الوحي يطلق في اللغة على مطلق الإعلام ، غير مقيد ذلك الإعلام بأحد معين يلقى ولا بمستقبل معين يلقى عليه . كما أنه غير مقيد ذلك الإعلام بطرق معين من طرق المعبرة . كالرمز أو التعريض أو الإلهام أو الكتابة أو الكتاب أو الكلام ١).

المعنى الشرعي: ( هو الإعلام الله إلى أنبيائه ) فلا يكون مصدره إلا من الله ولا يلقاه إلا نبي لرب العالمين فهو متميز إرسالاً واستقبالاً وله صفته الخاصة . وضرورة أنه يستحيل أن يقبل الإنسان فكرة وجود الخالق المديب الحكيم دون أن تترافق مع الإيمان برعاية الخالق لخلقه وتديره المستمر للكون ، فإذا أيقنت بوجود الله ، فمن البديهي أن تؤمن بأن الإله سيرسل للبشرة ما يدلها إلى طريق سعادتها ومسلك عدلها ودروب الحق لتمتىها دروبًا لها ، لأنه ليس من الضروري أن يكون كل ما في العقل كافياً للتخطيط نمط الحياة المثلى . بل وجد الوحي ليواكب العقل . وما خالفت الرسائل السماوية الصحيحة التي لم يعترها التزوير الحقائق التي أثبتها العقل السليم المعتمد على تفكير علمي

١) ابن حجر في فتح الباري ١ ص٩ .
منظم ... بالإضافة إلى أن لكل من العقل والوحي ميدانه الخاص في كثير من المسائل. فإذا استطعنا بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق الكون والحياة، فإننا لا نستطيع بغير الوحي أن نتوصل إلى حقائق ما وراء الطبيعة التي أصبحت حقيقة لمراء فيها فالعلم بذات الله وصفاته، والطرق الموصلة لرضاه، وطاعته وامتثال أوامره وكل ما يتعلق بعالم الغيب لا يعرف إلا عن طريق الوحي.

وإن الوحي ما هو إلا ري لما في النفوس من ظماً محرق للوصول إلى الحق، وقد أضاء الوحي للجذرة الكبيرة المقدسة في أغوار النفس دروب الحياة الصحيحة لتصل إلى الحق الكامل بسهول. طريق دون أن يحطم العقل في كثرة افتراضاته دون جدوى. وما كان الوحي إلا رحمة إلهية، يشير إلى العقل التائه، هذا الطريق الحق، فانظر في بدايته واسلك دربه ودل الحبارى عليه وعرفهم كحل الحقيقة بل ملكهم الحقيقة كلها ... وإياك أن تبتعد عنني، فابتعادك عنني ضياع ومثلك كمثل رجل في فلاة ضلل عن مرشده ظاناً نفسه قبل ذلك أنه بامكانيات النجاة من المفازة وإذا به يجد نفسه يصل حيث بدأ وينتهي حيث انطلق ... 

وأما كان الأنياب إلا عقولاً مفكرة حكيمة باحثه عن الحق، ليرشدوا الناس إلى كل مكرمة وفضيلة تسمو بهم وتعرج بمجتمعهم.

51
نحو العدالة المطلقة والمساواة والإنسانية.

ولولا الوحي المتابع بدأاً بآدم وانتهاء بمحمد بقينا في عهد سفه، وعهد ليس لله صلى صبح وما أرسل الأنبياء إلا ليلقي الله إليهم بحقائق الكون القيمية العليا، كي يبلغوها للناس، وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق، ومعرفة أسرارها وسنته بعد أجيال وقرون، ويظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي مع ذلك حقائق القيمية تهدي قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقةها على حين تظل قلوب عليها أغلبها، ظاهرة بها لغفلتها عنها. وعليها أن نناقش البحث عن طريق المنطق العلمي المحض فالعلم الحديث قد أوجد في جامعات العالم اختصاصًا كاملاً اسمه (علم الروح) وهذه جامعات أكسفورد وكمبردج وجامعة في الولايات المتحدة تبحث الروح بشكل علمي وحاول الوصول إلى نقاط غامضة فربما تصل ولربما تحتاج إلى قدرات لا تملكها البشرية وهذه صحيفة الأهرام بتاريخ أول مارس سنة 1963 تكتب ما يلي:

إن عالماً روسياً من لينغراد كتب يقول (لقد اقترب الوقت الذي يستطيع العلم فيه الوصول إلى أسرار الروح كما وصل من قبل إلى أسرار الجسم عن طريق التشريح) ولا يهمنا الشطط في مناقشة هؤلاء على إمكانهم معرفة الروح أم لا . . . . ولكن هذا اعتراف

52
علامة بوجود عالم الروح ... وما الوحي إلا امتداد لعالم الروح ... وهنا علي أن أنبه الأذهان إلى أن عالم الروح ليست مكانا كالكوكب والنجوم وإنما هو عالم أثري قد يراه شخص معين ولا يراه شخص آخر. ذلك لأن الأول لديه القدرة الروحية التي تسكنه من رؤيته والثاني ليس لديه تلك القدرة والأنبياء هم أصحاب القدرات الروحية والفكرية العالية ...

ظاهرة الوحي عند محمد :

إن دراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها الوحي لمحمد بن عبد الله تدل على أمر غير عادي وإنها لظاهرة عجيبة وكانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين يلتقي بالوحي وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه، فكانوا يرونها قد احمر وجهها فجاءة وأخذته البراءة حتى يتفقد جيبه عرقا، ويثقل جسمه، وكانوا مع ذلك يسمعون من حوله أصواتا مختلفة تشبه دوي النحل ثم لا يلبث أن تسرح عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآنا جديدا وذكراً محدثاً.

فلمنظر في هذه الظاهرة: هل كانت شيئاً متكاملاً مصنوعاً بطريقة تحضيرية يستلهم بها الفكر والروية، أو كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار؟ وإذا كانت أمراً غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأً من الأسباب الطبيعية العادية، كباحثة النوم، أو من
الأسباب الطبيعية الشاذة كاختلاف القوى العصبية أو كانت انفعالًا بسبب خارجي منفصل عن قوى النفس؟

وإن نظرة واحدة تلقىها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفةً، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلفة التي كانت تسمع من حوله وأيضاً لو كانت صناعة وتكلفةً، للكانت طوق يميتته، فلو شاء يوماً أن يأتي بقرآن جديد لجاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره. مع أنه كثيراً ما التمسه في أشد أوقات الحاجة إليه كحادثة الإفك التي أقلته شهراً كاملاً وسؤال قريش واليهود ... فكان لا يظهر بالرحي إلا حين يشاء الله. فهي إذن حال غير اختيارية. ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم، فإناها كانت تعريه قابلاً أو قاعداً سأراً أو راكباً، بكرة أو عشياً، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه وكانت تعريه فجأة وتزول عنه فجأة، وتتفضى في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للإنسان، وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم. وبالإجمال كانت ظاهرة تباين حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها، وجمالة مظاهرها. فهي إذن عارض غير عادي.

(1) الوحي الهي: الحسن عبد المجيد هاشم.
ثم لنرى المباينة التامة والمناقشة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والثوبيات العصبية التي تصرف لها الوجه، وتبرد الأطراف، وتتصل لأسنان، وتكتشف العورات، ويحتجب نور العقل ويحكم ظلام الجهل، بينما نرى في ظاهرة الوعي مبعث نمو في قوة البذن وإشراق في اللون، وارتفاعاً في درجة الحرارة، وكانت بالإضافة إلى ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يحكي معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضائل الألوان عند طلعته. ها نحن أولاء قد كنا أن نضع النقاط على الحروف... فلمتخف وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الوعي الذي كان يبدو حينا لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ويخفى أحياناً من حيث لا يد لصاحبه في ظهوره ولا في اختفائه: هل على أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية؟ إذاً لو كان مصراً داخلياً لكان خليقاً أن يبعث منها أبداً، ولكن أحق أن يبعث منها في حال الاضطحة العادية والرؤية الفكرية أكثر مما يبعث منها في تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة المفاجئة التي تشبه السنة أو الإغواء، ولا بد أن يكون وراء هذه المفاجئة التي تعيري محمدًا عليه الصلاة والسلام مصدر نوراني بمد هذه النفس بين آن وآن، فيسمو بها عند أفق شعورها المحدود، ويجزوها بما شاء من العلوم، وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستفاداً من ذاته، وإنما هو مستفاد من ضياء الشمس.
لأنهم يرون اختلاف نوره تابعاً لاختلاف مواقعها منها قرباً أو بعيداً، فذلك فليؤمن الباحث عن الحقيقة بأن نور الوحي الساطع في هذه الدنيا إنما يكون شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الحقيقة النورانية الأبدية التي يرى الناس أثراً ولن كانوا لا يرونها. نعم إنهم لم يروها بعينهم طالما في رابعة النهار، ولم يسمعوا صوتاً يذاثنهم جرساً مفهوماً وكلاماً يفقه الناس، ولكنهم كانوا يروون تقديساً منها في الجبين، وكانوا يسمعون حسياً حول الوجه الكريم وإن في ذلك لهدى للمهتدين.

هي إذن قوة خارجية، لأنها لا تصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين وهي لا محلية قوة عالمة، لأنها توجي إليها علماً. وهي قوة أعلى من قوته لأنها تحدث في نفسه وبدنه هذه الآثار العظيمة علّمه شديد القوى ذو مرة فاستوى. وهي قوة خيرة معصومة لأنها لا توجي إلا الحق ولا تأمده إلا بالرشد، فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة من خيال شارد... فتأتي للوحي هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم؟ فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عن الوحي، وإن لم يره، لأنه رأى أثره، ولأنه يؤمن بمن أخبره. وأما المتكبرون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر المعارف فظفوا أنهم أظهروا بكل شيء علماؤاً فإنهم سيكونون بكل ما لم يجيزوا بعلمهم، وسيقولون: لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء وكل ما زاغ البصر

56
وما طغيت وعلمهم يقولون لعله اضطراب في قوى الفكر، صور له المعاني أشباهًا مماثلة، والأحلام حقائق مجمعة، فيرد عليهم ما كذب الفؤاد ما رأى. نعم لقد عجب كفار قريش ومن بعدهم أن يكون إنسان كمحمد يرى الملائكة عيانًا يكلملهم جهارةً، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونهم بعينهم، وصوت لا يسمعونه بآذانهم، فقالوا كيف يرى محمد ما لا يرى ويسمع ما لا نسمع وعلمرى لأعجب من هؤلاء أشد العجب بذاك، لأن العصر الحديث قد فسر لعقولنا أمرًا أكثر إعجابًا. وأقرب هذه الأشياء الهاتف (التلفون) فقد أصبح الرجلان، يكون أحدهما في أقصى المغرب، والآخر في أقصى الشرق ثم يتخاطبان ويتراقبان، من حيث لا يرى الجناسون في مجلس التخاطب شيئاً، ولا يسمعون إلا أزيزاً كدري النحل الذي يشبه صفة التخاطب من نوع -الروحي- والتلفاز الذي ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك فهذا أشبه بفكرة الروحي ويزقها للأذهان المادية التي لا تؤمن بالروح وسموها.

وأعجوبة التنويم المغناطيسي الذي يمكن الرجل القوي الإرادة على من هو أضعف منه بقوة إرادته حتى يجعله ينام نروماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الأبر، وهناك يكون رهن إشارة وتنمحي إرادته فلم شاء أن يمحو من نفسه رأيًا أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة. بل لو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسمًا آخر يقنعه بأنه هو
اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليمًا، ولا أصبح اسمه الحقيقي نسياً منسياً، ولبقي هذا الاسم الجديد منقوشاً على قلبه ولسانه حتى بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله، فإذا كان هذا فعل الإنسان بال الإنسان، فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟

فذلك مثل حامل الوفي ومتلقيه، هذا بشر مطوع ذو روح صافية يقبل انطباع العلوم فيه، وذلك ملك شديد القوي ذو مرة يحمل إليه الرسالة ويلقنه إياها فلا ينسى إلا ما شاء الله.

ويقول العالم الفيزيائي الكبير ليكونت دي نوي رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في السوربون:

إن المعتقدين بعدم كفاية العقل لفهم الولي الإلهي والملحدين، لا يبدو عليهم القلق أمام الحقيقة بأن الكون الحي المنظم يبدو غير مفهوم دون قبول فرضية وجود الله. فهم يؤمنون ببعض العناصر الفيزيائية التي لا يعرفون عنها سوى القليل مع أنها تحتوي على جميع دلائل الإيمان غير المعقول، ولكنهم لا يعرفون ذلك وبعضهم غدا مستعداً لمجموعة من الكلمات الساذجة التي لا معنى لها.

وفي الحقيقة لقد أصاب في مقارته العلمية التي بين فيها الأسباب غير العلمية التي يبناها بعض الملحدين لرفض فكرة الولي، ويتصور الكثير بأنهم لا يمكن لأحد حملهم على الإيمان.
بالوحي لأنهم عاجزون عن إدراكه، ولكن أستطيع أن أقول بأن الإنسان العاقل الذي يتمتع بفريدة حب الاستطلاع العلمي لا يحتاج إلى رؤية الوحي، يجعلاً بملك إلا كما يحتاج الفيزيائي رؤية الألكترون ودلا محاولات في كلتا الحالتين باطلة لا قيمة لها، فالإلكترون لا يمكن إدراكه مادياً ومع ذلك فهو معروف تماماً بآثاره أكثر من قطعة الحديد المشاهدة. وكذلك الوحي يعرف بآثاره الحضارية والفكرية والاجتماعية.

ما هو دور الموحى إليه:

لم تكن مهمة الأنباء الموحى إليهم تبليغ شرائط الله فحسب بل كانت مهمتهم بالإضافة إلى ذلك أن يكونوا أمثلة عملية مجمدة للشرائط، وأن يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق ولذا جعل الله الرسول والأنباء بشراً لا مثلاً فيهم من الغزاة والمؤامرين ما في سائر الناس ولكنهم كانوا حكماً في استخدامها، فلم يقتلون غزائهما ولم يمنحوا بل نظموا وضبطوا سيرتها في سير حكيم نحو الكمال الروحي والجسدي، ومن هؤلاء الأنباء محمد بن عبد الله الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معارفها، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها، فهو الموحى إليه، والوحيد الذي يمكن أن يكون الشخصية الكاملة بكل يقين لأن سيرته واضحة المعالم منذ وفاته حتى وفقت نبض الحياة في جسده.

59
وفي تتمة البحث سنثير على المناقشة لصحة الوحي بالنسبة
لمحمد وعلى مشاركة القوى الخفية في إيجاد معجزة محمد
العقلية ... لأنه كان لكل موعى إليه معجزة حسية تلائم العصر
والنبيض الفكري لتلك الأمة التي يبعث لها ذلك الرسول ...
ولربما كان في تلك المعجزات إكراء حسي للإيمان فأمام في معجزة
محمد عليه الصلاة والسلام فلايعثر على هذا وإنما نقاش عقلي
معجزة فكرية هي معجزته الكبيرة التي تحدى بها العرب وكل
أعداء عقيدته .

ولا بد من الإشارة في خاتمة بحث دور الوحي من القول بأن
الوحي كان سبيلاً للتشريع يضمن للجماعة النظام الأمثل وتكوين
الأمة بعناصر تميزها بخصائص حضارية ، ومبادئ إنسانية ، يشهد
لها التاريخ ، وتبقى أمثلة خالدة وعلى سبيل المثال الأمة العربية
وحاضرة ومضجعها مستقبلها . ...

فعنما تركت الوحي وما أوحي فيه خلدته إلى ما كانت عليه
في مضيها من تمرق واستغلال وضعف وأنانية وعندما عاشت
مستضدات بظل الوحي رفعت لها في الحق رايات ، وبنبت حضارتها
مثيرة في مشارق الأرض ومغاربها ، وكبدت الباطل وأعوانه
العار ، وحمت الحق وأهله وألبستهمباس الأمن والطمأنينة
والعدالة والسعادة .
وحي محمد والأنبياء:

إن الونغي لم يكن شيئاً جديداً على محمد عليه الصلاة والسلام بل كان قديماً قدم الرسول والأنبياء ولذا يقول ر.ف. بولي في كتابه الرسول) يخص المعارضين لنبوة محمد من المسيحيين واليهود ويعجب منهم، لعدم إيمانهم بالوحي المنزلي على محمد على الرغم من تصديقهم للوحي المنزلي على موسى وعيسى ... فيقول:

فعلى الساخرين من محمد في غار حراء أن يسخروا من موسى أيضاً وهو على طور سيناء، ومن عيسى على تلال الجليل ...

ولقد قصوا نبا تلك الأشياء في سبابة وحسن نية، وإن هذا لينطبق على محمد بن عبد الله والملك جبريل ».

وهذا منطق سديد، وموازنة علمية دقيقة، وقانون عام ينطبق على كل رسول، فلم نفرق ...؟؟

ويمكننا القول بأن فكرة الوحي قد ولدت مع ولادة الرسالة الأولى ثم بدأت الرسالات تواكب بعضها بعضاً وكل رسالة تؤيد سابقتها وتؤمن بها وتنفي الزنازيف الذي دخل بمروء الزمن من قبل البشر لتعود العقيدة لصفاتها وجوهرها الناصع. ونجد أن اليهودية كانت المنطلق الأول لفكرة الرسالة الإلهية بشريعة وكتاب ثم جاءت...
النصرانية ردفاً ومتممًا ومصححاً للأوضاع التي آلت إليها البشرية من جراء البعد بين حقيقة اليهودية في أصالتها واليهودية في واقعها ... ثم جاء الإسلام يدعو للإيمان بالأنبياء ويصبح أخطاء أتباعهم ويعود بالعقيدة إلى صفاتها دون شوائب فصدع بالتوحيد وآكد عليه ونظم الشريعة الكاملة للإنسان بعد نضجه ووصوله إلى مرحلة الرشد العقلي ... فهل يعقل بعد ذلك من تواكب الكذب من أشخاص متعددين ، لا صلة بينهم على مرور الزمن ، بل كل يبشر بالآخر ويدعو له ، وأما الذين استمروا على عقيدتهم ولم يرضوا بمن جاء بعد نبيهم فهؤلاء المتخصصون الذين يقولون إننا وجدنا أبنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون اقتداء بلا فكر وسير بلا بحث ولا تمحيص .

ماذا يزيد الوحي على العقل؟
إن الإنسان يملك عقلًا مدركًا للكثير من حقائق الوجود ، ولو بلغ من ذروة النضج الفكري فلن يحيط بجميع المدركات الحسية والاجتماعية والاقتصادية ولذا نرى مجتمعات العالم اليوم التي ابتعدت عن الوحي الإلهي تفتخط في ذاكر الوضاء ، ففي كل يوم قانون ينص ، وقانون يبطل ، وحركة تقوم على أسس جديدة وأخرى تندثر ، وكلها بفعل الضعف الإنساني ، فلو سلكت الإنسانية درب الحياة المعبدة من وحي السماء لما أعوزتها كل هذه
الهموم ولوجحت طاقتها إلى علم جديد، أو بحث مفيد، ونرى أن العمل الذي هو نتاج قد سخر لهدم كيان البشرية، ولتقويضها بدلاً من إصلاحها وسعادتها ولذا قال ليكونت دي نوي أستاذ الفلسفة في السوربون: ( فالذكاء وحدة غالباً ما يؤدي إلى آراء هدامة أو إلى مناقشات عقيدة معقدة متشابكة إذا كان مجردًا عن المبادئ الخلقية ) ولهذا ما نشاهده في تزايد الصراع العالمي البعيد عن المثل العليا فما هو الإنتاج؟

إنه مفكر يبحث، أو فلسوف يبدي، ولا جرم أن الوحي هو رديف للعقل يضبط له طريقة حياته في هذه الأرض، ويصبح له أخطاءه، وينقذه من هفواته، فالإنسان الذي يطلب السعادة في الدنيا بعقل مجرد غير محاط بهالة الوحي وقدسيته فهو كالمجتون يجري وراء ظله ليس كه فلا يدرك شيئاً غير معرفته أنه كان في عمل باطل وسعي ضائع.

وأما الأنباء الموحى إليهم إلا أمثلة للعوالم الإنساني في هذه الخليقة تنصبهم يد الله على طريق الحياة لتنتهي فيهم عصور وتبدئ بهم عصور وليسودوا خطًا عقل في تاريخه الطويل.

وفي نهاية المطاف لنقرأ ما قاله القرآن على لسان المنكرين للوحي:

» آكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس«

۶۳
وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين.

لكن القرآن رد على هؤلاء المتخرصن الذين أبوا أن يذكروا بحجتهم، وإنما أطلقوا محض الشك، فوصف لهم حياة محمد قبل أن يهب له الوحي ويبين أن لم يكن يعلم عن الوحي شيئاً ولم يقص عليهم طوال حياته ما يدل على شروع ولو نفسي لهذا الإدعاء الذين يظنو، بل كان في حيرة من قومه، يعيش بعيداً عن تقاليدهم وعاداتهم وعباداتهم، ولم تظهر في فترة من فترات حياته أي فكرة عن الوحي أو ما يدل على ما سيؤول إليه في مستقبل حياته ولذا جاء في القرآن:

لا يسألك بشيء غير ما جعله الله في قلوبك ولا يستنكر عليك كذباً أو كذب بأمانته أنه لا يفلح المجرمون.

هل يعقل من إنسان يريد أن يأتي بشيء جديد لم تظهر بوادره على نفسه؟ وكما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئكم من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(1) يونس 16 - 17.
والغابة الكبرى من هذا الوحي: تظهر في هذه الآية القائلة: 

"إنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين على قلبي لتكون
من المنذرين" (1).

وفي قوله: وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا: ما كنت
تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء
من عبادنا (2).

وفي قوله: وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة
من ربك (3).

(1) الشعراء 192.
(2) الشورى 52.
(3) القصص 86.
الباب الثاني

لمحة عامة :

لا بد من متابعة الفكرة التي سبق أن وضحنا بعض النقاط الهامة فيها وذلك بعد أن وصلنا بالقارئ إلى مرحلة هامة لنبدأ ففي الإجابة عن السؤال الخطير الذي يسأله المؤمن بالله والشاب الناشئ الذي لم يدرس حياة محمد دراسة وافية وهو هل محمد رسول؟ وما هي الأدلة العقلية القاطعة على نبوته؟ علماء بأننا في عصر العلم والبحث فسنجذب جاهدين بعقل متحرر، وفكر في البحث عن الحجة البينة، والبرهان الساطع، فسوف نبدأ في هذه الأدلة دليلًا إثر دليل ومن ثم نناقش ما قاله كبار الفلاسفة والعلماء والحكماء في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.
الدليل الأول
النبوة بين التصديق والتكذيب

كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضراء المسمى بالنهر، يخرج المصلح فيوجد في الكون ينبوع الإنسانية المسمى بالحق، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها وليس الحق إلا يقظة النفس تحقق فضائلها. والشمس خلقها الله وآمدها بقدرة لتحرير الأشياء وتغييرها، والمصلح يبعده الله حاملًا مثل تلك القدرة في عمله الروحي والحضاري فتترقى به النفوس وتسمو. ولكن بعض المصلحين يطلق عليهم اسم ( النبي ) .. وهو الذي يعمل ما استنادًا به النفوس في حساب عن كل ما اقترفه الإنسان بعد حياة الجسد، وهو الذي يطلب من الناس اتباع شرع يدعو أنه من عند الله، وفيه أواهر نعاه، ولا بد للإنسان الذي يفاجأ بهذا النبي من سؤال عميق لنفسه، هل هذا النبي صادق؟ ما هي الأدلية على صدقه؟ ونحن في مناقشة حول صدق محمد بن عبد الله، ولا شك أن معرفة المرء تؤخذ من بيته، فلنتصفح ما كان عليه محمد في قريش.

لقد كان تاريخ محمد بن عبد الله مشرقاً أخذاً في مكة ومن ذلك

69
تسميته بالصادق الأمين، وإجماع أهل مكة على نبلي وصدقه وشرفه.
وقد وصف بأنه ( يصل الرحم، ويصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، ويحمل الكل، ويقري الفضيف، ويعين على نوائب الحق) ولا يجلس علينا إن استمعنا هذا الأثر التاريخي المشهود
بالصحة، الذي يبين فيه رجل من كبار قريش صفات محمد،
وذلك عندما سئل من قبل هارون عظيم الروم، علمًا بأن أبا سفيان كان من أشد أعداء محمد في بداية دعوته ويصرح بذلك . . فهذه الحادثة كما رواها البخاري بسنده إلى عبد الله بن عباس قال: «إن أبا سفيان بن حرب أخبر أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله صادقًا ( جعل بينه وبينهم مدة يتهاددون فيها وهي مدة صلح الحديبية) فيها أبا سفيان، وكفار قريش، فأتنوه وهم بإبلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظمة الروم، ثم دعاهم ودعوا بترجمانه فقال:
أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟
قال ( أبا سفيان ) فقالت أنا أقربهم نسباً.
فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوه عند ظهره.
ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكلذبوه.
قال ( أبا سفيان ) فلولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت
عنه.

70
ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟
قلت: هو فيها ذو نسب.
قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.
قال: فهل قال هذا القول فيكم أحر قط قبله؟
قلت: لا.
قال: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاً منهم؟ قلت: بل ضعفاً منهم.
قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.
قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لديه بعد أن يدخل فيه؟
قلت: لا.
قال: فهل كنتتم تتهماً به الكذب قبل أن يقول ما قال؟
قلت: لا.
قال: فهل يغدر؟
قلت: لا. ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.
قال أبو سفيان ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.
قال: هل قالتلتموه؟

٧١
قلت: نعم.
قال: كيف كان قتالكم إياه؟
قلت: بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.
قال: ماذا يأمركم؟
قلت: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصيام، والصدقة، والعفاف، والصلاة.
قال: فقل لترجمانه: قل له:
سألتك عن نسبه، فذكرت أنه ذو نسب فيه، ... وكذلك الرسول تبعث في نسب قومها.
وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا .
قلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله.
وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا .
قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.
وسألتك هل كنت تتهمونه بالكلب قبل أن يقول ما قال؟
فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكلب على الناس ويكذب على الله .

72

http://kotob.has.it
وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه .. وهم أتباع الرسول .

وسألتك: أزيدهم أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون ..
وذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لديه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا .. وذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك: هل يقدر فذكرت أن لا ، وذلك الرسول لا تغدر .

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف . فإن كان ما تقوله حقا فسيملك موضوع قدمي هاتين .. وقد كنت أعلم أنه خارج ولم آكن أظن أنه منكم ، فلو أني أخلص إليه لتجسست لقاءه ، ولو كنت عنه لغسلت عن قدميه .. ولكن قيصر حين رأى نفوذ الروم خاف على ملكه أنه يقلت منه )

وبعد اطلاعنا لهذه الوثيقة التاريخية الرائعة ، التي تبين لنا حياة محمد وصدقه ، فلا عجب فقد سطرت حياته ، ورعيت منذ نشأته حتى بلغه الأربعين سنة .. وكلها مليئة بالأخلاص السامية ..

المعاملة الطيبة والمحاولة الهادفة الجادة .

73
لقد كان محمد ﷺ يعيش ضمن نفسه بعيداً عن قريش في خيلائها وانحرافها وصلفها، وهذا كله لشهد لنا أمام أصول التاريخ، بصدق الراوي، وصدق الرواية ولأنه لا يقبل الأمر إلا من رجل عرف بالصدق والضبط والإنقطاع. ولو كان لديه أي انحراف في مسيرته قبل البعثة أو بعدها لسعتها مخالفاً، وما أكثرهم، ولوجدوا المجلدات على كلمة يعثرون عليها، ولكن صفاء تاريخه وصدق طويته لم يدع في التاريخ شائبة. وإن استنتاج هرقل المنطقي: كيف يدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله. وهذا لعمري هو المنطق السديد، والاستنتاج الصائب، والمحاكمة الفكرية المنطقيه. بل ماذا يستطيع الجاحدون إزاء هذه الوثيقة؟ أي كذبون محمدًا أم يقولون إنه عبقرى؟ وهل يعقل لبعقري أنه كاذب؟ ثم هل يعقل من صادق عرف بالصدق؟ إدعاء ما لا يستطيع البيئة الفردية على دعاه. علمًا بأنه لم يجرب الكذب في الأمور البسيطة فكيف يقفز من الصدق المتفق عليه إلى الكذب البواح وبطفرة واحدة.

ولا بأس إن تابعنا حديث الصدق والكذب عند محمد لنتحرئ الحقيقة، وفي هذه الوثيقة الثانية شعاع آخر، لعله يدخل إلى القلوب المكشوفة، فعندما دعا قريشاً في بداية دعوته، واجتمعوا حوله، وأخذ منهم ما يثبت صدقه عندهم، وأجتمعوا على ذلك.
فقدن في ذلك اليوم على مشارف مكة:

"يا صبحاء! يا صبحاء!" جرياً على عادة العرب حين يتداعون لأمر مهم، وحين يستصرخون لدفع خطب ملم - فلما اجتمعت إليه بطن قريش قال لهم: "أرايت لأخيكم أن خيلاء وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أکشت مصدق - وكان القوم الذين خاطبهم الرسول الكريم ووجه إليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ولم يألقوا التعمق والتدقيق ولكنهم كانوا عقلاء متزلفين تطهروا الفهم وسرعة الإدراك فاستعرضوا تاريخ هذا الإنسان المنادي فلموه ولم يتكلموا حتى يسمعوا منه وكانوا عقلاء متزلفين - فقالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ...

يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة... إن الله أمرنني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله... يا معشر قريش أنتموا أنفسكم من النار، فإليكم لا أغني عنكم من الله شيئاً... إن مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله أن يستفهم إليهم، فجعل يهتف يا صبحاء! يا صبحاء أتيتم أتيتم! 

هذه الصيحة العميقة خرجت من قبل رجل، ووعاها رجال،
فمنهم من هذي منطلقاً من استنتاج منطقي، أجري عليه التعميم، وهو قولهم (أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط ... قالوا: صراحة ... قالوها وهم لا يعلمون شيئاً من مراده. فمن صدقته بعدها، كان طبيعياً في فكره، ناضجاً في محاكمته، رضي في الفرض ثم وصل إلى الطلب ثم قبل في الجواب وأما أولئك الذين أعرضوا ... وما زالوا معرضين، فلا بأس فإنهم قد وضعوا ساتراً أمام العيون ليحجبوا أنفسهم عن الحق، والحق الذي لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقا أنفسهم لحظة حين يقولون عن محمد بن عبد الله - الذي يعرفونه حق المعرفة؟ إنه كذاب ...! إنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل، وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء، ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة، ويزلزل القيم الزائدة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء!

حرارة الصدق:

ولا شك أن الصادق يلمح المستمع له حرارة تنبض بالحياة. ومما نرى في نبضات الحق التي خرجت من محمد بن عبد الله دون سابق تصميم وهذا مصداق قول الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفيه على الناس تعلم

٧٦
إنها كلمة الثبات حين رأى عمه يريد أن يسلمه لقريش فقال:

له:

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على
أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أملك دونه . . .

يا لها من كلمة تبث صدق قائلها، وعمق عقيدته، وقين
منطلقه، ولتتابع المناقشة التي جرت بين محمد بن عبد الله
وقريش، فإننا سنرى ما يحاولون من لين واستدراح، ومداحنة
وملاحظة، ليخفف من انطلاقته، فأخذوا يعدون الوعد إثر
الوعود ويعرضون عليه العروض الشتى . . . فما استطاعوا أن
 يصلوا إلى شيء فأخذوا يعتابونه فيما أدخله على قومه من شقاق ،
وما جاءهم به من خلاف ، عرض وعذاب، تحذير وإغراء
استدراح وملاءة . . . هذا لعمري أكبر وسيلة إليه لو لم يكن صادقاً
في دعاوا . . . ثم عادوا يلحون عليه بما عرضوا عليه . . من
الملك، والسلطان، والممال، والشروة، والطب
والعلاج . . وما إلى ذلك من إغراء . . تستمال فيه النفس
العظيمة، وتستجلب القلوب الشارد، وتشرى به الضمائر . .
وهكذا فلم يجدوا منه جواباً إلا أن قال لهم:

ما بي ما تقولون . . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم
ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله يعثني إليكم

77
رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم شريآً ونذيراً، فبلغتم رسلات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم...

ونظرة بسيطة إلى أعمق الفكرة التي صرح بها محمد بن عبد الله بعد العرض والإغراء تجعل الإنسان الغريب عن هذا الموضوع في حيرة من أمره وإذا زاد بعد ذلك في معرفة صاحب هذا القول لا يلبث حتى يقول هذا كلام رجل صادق.

وهذا ما جعل الدكتورة لورافيشيا فيلياردي أن تتكلم بصراحة وحرارة عن صدق محمد في دعاءه فقالت في كتابها (دفاع عن الإسلام) : "وحاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد أن يرموا النبي الله بعض التهم المفتعلة. لقد نسوا أن محمدًا كان قبلاً يستهل رسالته موضوع الإجلال والتعظيم من مواطنيه، بسبب أمانته وظهارة حياته.

ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرتدين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بناء الجحيم الأبدي لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذباً؟ كيف جرّع على التشفير، على الرغم من إهانات
مواطنيه إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحميه - وهو الرجل ذو النظرة السليمة - حثاً موصولاً؟ كيف يستطيع أن يستهيل صراحاً كان يبدو يائساً؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات في مكة في نجاح قليل جداً، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين والخباء والذيناء، وأن يؤذروه، ويدخلوا في الدين الجديد، ويزجوا أنفسهم بالتالي في مجتمع مؤلف في كثرة من الأرقاء والعائدين والفقراء المدمرين إذ لم يلموا في كلمته حرارة الصدق؟ ولستا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك. فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأيضاً. وإن القارئ، للأشعر التي دونها دكتورة التاريخ الغربي والإسلامي في جامعة إيطاليا ليلمع التحليل العلمي المدروس للشخصية التاريخية الدينية والنتيجة المناطقية السليمة.

وإن في متابعة الأقوال التي تخرج في حرارة وعمق العاطفة من صاحبها فإننا لتقول لنا إلى اليقين بعمق إيمان صاحبها، كما يقول برنارد بردماج ( إن الفكر المندفع الذي تقويه ريح طبيعة من العاطفة العميقة هو أعظم قوة على الأرض) فعندما صدع محمد بن عبد الله في رأيه قاومته قريش برجالها بجدتهم وحسدهم ... فأحب أن يدعو في الطائف لعله يجد أذناً صائغة، فقاوموه مقاومة اللؤم والقسوة وحرضوا عليه الأطفال والعيبد، وضرب بالحجارة حتى
سال الدم من أخصي قدمه وما تغيرت نبرات الصدق عنده،
وما تبدلت عاطفة الإيمان عنده، وإنما انكشفت نفسه عن حقيقة
أغوارها بعد أن تحركت نفسه بالأمل، وجاش صدره بالضراوة.
ومال إلى جدار في بستان، واتجه بقلبه إلى الله يبهره إليه ويرجو
منه الغوث والرخامة، ويستعيد من خواطر الضعف والخور
والإخفاق، وهواجس اليأس والقنوط ... فصلى ركعتين ثم رفع
يديه إلى الله قائلاً :
الله يليك أشكر ضعف قوتي، وقلة حياتي، وهواني على
الناس، يا أرحم الراحرين ... أنت رب المستضعفين، وأنت
ربي، إلى من تكلنني؟ إلى بعيد يتجهمي، أو إلى عدو ملكته
أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن خافتك أوسع
لي ... أعوذ بنتور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه
أمر الدنيا والآخرة، من أن يتزل بي غضبك، أو يحل علي
سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا
بك!! ...».

يا لها من كلمات عميقة ... إنها لا تخرج إلا من قلب
صدق، متحرك بالحقيقة، والمتبصر يرى أن العقيدة التي جاء بها
قد أخذت عليه عقله وسلوته وعاطفته فصار عقيدة مجسدة ناطقة
وهذا لا يتم لكاذب مداهن يصب لتحقيق غاية في نفسه وإن في
80
عبارة أحد رجالات المدينة المنورة عندما وفد إليهم محمد للدليل
آخر إذ قال عبد الله بن سلام لما قدم محمد المدينة ... انجلل
الناس (1) إليه ، وقيل قدم رسول الله ... قدم رسول الله ... فجفت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله ... عرفت
أن وجهه ليس بوجه كذاب (2) فالكافذب له انطباعات خاصة في
نفوس المطلعين إليه . والصادق يظهر في انعكاس عاطفته ، وشدة
يقينه لما يقول ولذا يقول الدكتور نظمى لوقا في كتابه
( وامحمد ) :

فأي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من أبي القاسم
الذي حوّل الآلاف من عبادة الأصنام إلىعبادة الله رب العالمين .
ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان ، ولم يعبر من جهاده
لشخصه بعد انتصاره كما يقبل عليه طلاب الدنيا من زخارف
الحظام .

حفاظًا على معنى الشرف ، وصيانة لحق المروءة ، أوجب
على نفسي ذلك الإنصاف لشخص أبي القاسم ولرسالة التي حملها
إلى الناس ، في أمانة وصدق وتجرح لا يبارى ... فشهادة الحق
من أوجب الأمانات والساكت عن الحق شيطان ، فالسلام كل

___________________________

( 1 ) انجلل إليه / وفدوا عليه .
( 2 ) رواه الترمذي .
الملام على من يدرك الحق كرابعة النهار، ثم يتخاذل عن إعلانه، ويتراكم رايته تنكسر بعين السفّاء والطغاة والثمام ...).

وقبل نهاية هذا الموضوع علينا أن نسأل أنفسنا ما هي الفائدة التي كان يفكر بها محمد لو كان كاذباً؟ . الملك! دعي إليه بلا جهاد فأباه . المال! أغنه قريش برؤوس أموالها فرفض .
المكانة الاجتماعية! كانت له المكانة الرفيعة وعرضت له سيادة مكة فلم يرفض ... ولذا علينا أن نأخذ بمقاييس أخير للنبي الصادق والنبي الكاذب وهو معيار رائع عرضه الدكتور والعالم الكبير وأستاذ السوربون وهو ليكون دي نوي يقول: كيف نستطيع أن نميز بين النبي الحق والنبي الكاذب؟

إن ذلك يمكن بوساطة المعيار الذي وضعنا، وهو: إن النبي الكاذب هو الذي تنافي عقليته مع التطور، أو لا تأخذ بعين الاعتبار، وتتجاهل العزة الإنسانية ونوعية الحرية(1).

وإذا ما وضعنا هذا المعيار الرائع مقياساً لكشف الحقيقة عن صدق رسالة محمد بن عبد الله وجدنا عقيدة قد وضعت خطوطة عريضة لأمور كثيرة وتركت الأمور البسيطة للزمن ومنها: 

وفإذا ما وضعنا هذا المعيار الرائع مقياساً لكشف الحقيقة عن صدق رسالة محمد بن عبد الله وجدنا عقيدة قد وضعت خطوطة عريضة لأمور كثيرة وتركت الأمور البسيطة للزمن ومنها:

(1) مصير البشرية ص. 129. 

82
فإنجد في هذه الآية التي جاءت في عقيدة محمد... أنها تركت الاستطاعة مطلقة تتغير بتغير الظروف وحسب تزايد القوى البشرية وهذه ملائمة طبيعية للتطور الإنساني.

ومن ثم نجد أن الرسالة بشكل عام فيها نقاط ثابتة ونقاط متغيرة وفقد تركت للظروف ولذا جاءت القاعدة الفقهية الشاملة التي تقول:

تغير الأحكام بتغير الأزمان...

وأما بالنسبة للفقرة الثانية وهي أن تأخذ بعين الاعتبار العزة الإنسانية فالعننا أن نبحث قليلاً لنجد أن القرآن الذي أنزل على محمد يقال فيه:

"ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين"

"ولقد كرمنا بني آدم"

والمتامل يغريه النظر، ولا شك أن المتاهل سيسلمه تأمله إلى العجب من كثرة الأمور التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام لرفع الإنسانية إلى أعلى مراتب الكمال... وفي نهاية المطاف فلتتصفح هذه الآيات:

"لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون"

"ومن أظلم من من افتدى على الله كذباً، أو قال أوعي إني ولما يوح إني شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، ولو ترى إذ

83
الطلمون في غرامات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ... [الأنعام : 94]  
وإن يكذبوك فقد كذبت رسول من قبلك وإلى الله ترجع الأمور [فاطر : 5]  
قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك ولكن الطلمونين بأيات الله يجدون، ولقد كذبت رسول من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين وإن كان أكبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تنغفي نفثاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إله يرجعون [الأنعام : ]  
لعل القارئ يقول لماذا أتته بهذه الآية في هذا الموضوع علمأً بأننا لم نناقش القرآن ومصريته، أقول لك إذن فلتبث الصفحة عن هذا البحث وناقش الموضوع الثانى ألا وهو معجزة الرسول الكبرى ...
الدليل الثاني
التحدي ومعجزة الرسول

إن لكل دعوة بيئة، ومن البيئات تظهر الحقائق، وتدعم الحجج الواضحة، ولو تصفحنا تراث الإنسانية لوجدنا أن هذا القرآن، هو البيئة الغراء التي تشهد نبوة محمد، وإن الخوض في هذه الفكرة، تدعونا للمبحث الطويل. وهنا لدينا فرضيتان:

الفرض الأول: أن يكون الرسول هو الذي أوجد هذا القرآن، وبالتالي لا يمكن تصديق نبوته، لأنه يشهد لنفسه بنفسه ولا يقبل شهادة الإنسان لداته.

والفرض الثاني: هو أن يكون الكتاب منزلًا من حكيم خبير، وما دور الرسول فيه إلا التبليغ المبين، وبهذا نصل إلى الشهادة الحقيقية من القرآن نبوة محمد بن عبد الله لأنها شهادة تمت من قبل صاحب التنزيل وهو الله جل جلاله.

وإن نظرة سريعة خاطفة لآيات القرآن تدلنا على أن رجلاً آمنًا لا يمكن أن يوجد تشريعاً متكاملاً، ولفظاً معجزاً، ومنهجاً يوضح
فيه للإنسانية سبل سعادتها بطرق مختصر، وإن قيل: إن هذا الرجل عقري فذ، من عباقرة الأجيال... استطاع أن يكتب كما كتب الآلاف من العلماء في بحوث شتى...

وهنا علينا أن نجيب هؤلاء الذين يقولون هذا القول: هل يمكن لهذا العبقرى أن يكتب كتاباً يتقدم به الإنسانية مجتمعة، علمًا بأن اللغة العربية في عصره كانت في ذروة كمالها... ثم استمر في تجديده لبني قومه على الإثيان بجزء من القرآن ثم بعد ذلك بسورة واحدة وقد جاء فيها: "أم يقولون افتراء؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتيبات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإنَّما يسيبروا لكم فاعلموا أنَّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنت مسلمون؟ (هود: 14)"

وعندما اجتمع أهل مكة، وسلموا هذا التحدي السافر، لم يكن منهم إلا السكوت والمكابرة، وإنما التحدي يزداد، فتأتي آية أخرى تتخلد بسورة واحدة من السور ليستى لهؤلاء العرب أن يقفوا وقفة عاقل، ويشعروا بحقيقة الموقف، وإنها لفتة قرآنية رائعة وتخفيف في التحدي إلى منزلة جيدة فجاء في القرآن:

«وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدها فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت»

86
لكافرين ( البقرة : ۱۵ )

والمحترف للمعنى المراد في الآية يجد التحدي مع النتيجة سلفاً وهي عدم الإمكاني، وقد قطع دابره بأنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل التلفظ بها إلا ممن يملك ناصية البشرية، ولا يمكن أن يقولها عربي من العرب أبداً. وقد سمع هذا التحدي بلغاؤهم وشعراً له، واستقررت في آذانهم ودارت على ألسنتهم، وعرفوا أنها تنفي عنهم القدرة نفياً، وتغmezهم حتى آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا، وما كان يوعسهم إلا المجانية للموضوع وعلج المجابة له لستوع بيانه. فبدأوا يقولون: إنه ساحر ومرة شاعر وأخرى مجنون...

وقد وصف الجاحظ هذا التحدي وما آل إليه عند العرب فقال:

بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عادة، فدعا أقصاه إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاه بالحجة، فلما قطع القدر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحيمة دون الجهل والحيرة، حملهم على خطم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليهم وأعمامهم وأعلامهم، وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحج عليهم بالقرآن ويتحداهم به صباحاً ومساء على أن يأتوا بسورة من مثله، فكلما

٨٧
ازداد تحدياً لهم، وتقريعاً لعجزهم كشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الإميم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال: فهاتوها مفتيبات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر ولا طمع فيه إتقنله، ولو تكلمه لظهر ذلك ولو ظهر لوجود من يستجده ويحمي عليه، ويكابر فيه، ويزعم أنه قد عارض وقال والناقش، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلماتهم واستجابات لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمه، لأن سورة واحدة وأيات سيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش، و العرب في الرأي والعقل طبقات وهم التعبد العجيب، والرجل الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة، وهم الأسجاع والمزدوغ واللظ المنثور، ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناه فمحال أن يجعلهم قلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف بين مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والجراحة تبعث على الحيلة في الأمر.
الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنienne، وكما أنه من المجال أن يطبقوا ثلاثة وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنيفة فكذلك مجال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه وهم يبدلون أكثر منه أهٌ.

إنه بحث وأطنب، وأجاد في مناقشة الوضع الذي كانت عليه قريش إبان التحدي، ولقد جاء بكبد الحقيقة عندما قال: هم أعلى طبقات العرب، وبيدهم مقاليد الكلام وقد تحادهم القرآن فكيف يسكنون... وما السكوت في هذا المقام إلا اعتراف ضمني بقدرة المتحدي وضعف ما سواه. ولكن المطلع في تراعا يجد أن بعض العرب حاولوا مضاهاة القرآن وحاول بعضهم معارضته ومشاكلته ومنهم مسلمة بن حبيب (الكذاب) وقد جاء بأشياء لا يقبلها أدب، ولا يرضيها حكيم عاقل يحترم نفسه وذلك مثل قوله:

والشاء وألوانها وأعجوبة السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض إنه لعجب محض، وقد مر منذ فما لكم لا تمعجون(1).

وقال: والمبديات زرعا، والحاديدات حصدًا، والذاريات

(1) إعجاز القرآن للباقلاني ص 156 .

89
قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والهاردات ثرداً، واللازمات لقماً، إهالةً وسمناً قد فضلتهم على أهل الوبر، وماسبكتم أهل المدر، ريفكم ما منعوه، والمعتر فاوه، والباغي، فناوتوه

وذلك جاءت سجاح بكلمات تدعي أنها يوحي إليها: ومما قالته لميلمة عندما سألها أوحي الله إلية قالت: "ألم تكيف فعل ربك بالحبل، أخرج منها نسمة تسع، ما بين صفاق وحشا" وقال فما بعد ذلك قالت: "أوحي إلية: إن الله خلق النساء أفواجاً وجعل الرجال لهن أزواجا، فنولج فيهن مقتاً إيلاجاً ثم نخرجها إذا شتائنا إخراجاً، فينتجنا لنا سخالاً نجاجاً...

هذا الكلام على هذا النمط واه سخيف، لا ينهض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج متبدل المعنى، مستهلك من جهته ولا يرضي به عاقل منصف وبالحقيقة هو تقليد من حيث الأسلوب، وضياع في المعنى...

وقبل إن ابن المقطع حاول مضاهاة القرآن ولكن بعد فترة وجد نفسه يسير في صحرا لا يجد لنفسه المخرج فمزق ما كتب وعاد إلى صوابه.

وذلك أبو الحسن ابن الرواندي حاول في عدة كتب له أن يأتي بأشياء كثير ليشبه الفكر الصحيحة التي كانت في زمنه عن القرآن

90
وكل ذلك بدس من يهودي كان يؤلف له وهو (أبو عيسى الأحوازي) وقد ذهب قيمة ما كتبه في مقالاته وكتبه الكثيرة كالزهردة، ونعت الحكمة، والتاج عند مناقشته مع أبي علي الجبائي: قال ابن الرواندي: أنا أعلم بمخاذي علومك وعلوم أهل دهوك، ولكن أحاكمك إلى نفسك، فهل تجد في معارضتك له عذوبة، وهشاشة، وتشاكلاً وتلاوئماً، ونظماً كنظمه وحلوته كحلاوته. قال ابن الرواندي: لا والله.

قال الجبائي: قد كفيتي، فانصرف حيث تشاء.

ويقال إن ابن الرواندي كان أبوه يهودياً ومسلم والخلاف في أمره كثير.

ومهما حاولنا تمويه الحقيقة، فهل يمكن للتاريخ أن يطميس، وللأقلام أن تقف والجواب: لا. إذن لماذا لم تتجدد أفلام الأدباء والحكماء والفلاسفه للإنسان ببحث كالقرآن. وأسلوب كأسلوبه، والجواب بسيط: إنه الإعجاز ولأن في آية التحدي إعجاز وتعجز للعالم كله مجتمعاً.

قل لقن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهراً (الإسراء 9). انظر إلى هذا النفي المؤكد، بل الحكم المؤبد! هل يستطيع العربي يدري ما يقول أن يصدر هذا الحكم، وهو يعلم أن مجال
المساحلات بين العرب مفتوح على مصراعيه وأن الناقد المتأخر متي
أعمال الروية في تعقيب قول القائل المتقدم لا يعيه أن يجد فيه فائتاً
ليستدرك ، أو نافضاً ليكمل ، أو كلاماً ليزداد كمالاً؟ ألم يخفِّ
محمد لو كان من عند نفسه - بهذا التحدي أن يثير حمية أعدائه
الأديبة فيهما لمنافسته ، وهم جميع حاذقون ؟ وماذا يصنع لو أن
جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ،
ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد
الشعر ، فيكمل ثانياً ما أنقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا
كلامياً إن لم يبيه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحي ؟ ثم لو
طروحة له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره .. فكيف
يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة .. بل على الأنداد
والجن !! إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر
نفسه ، وهو ماله يدخله من تصاريح القضاء ، وخبر السماء ، وحنن
قد عرفنا شخصية محمد المعتدلية ، واتزانه الرصين .. ولكن قد
رما هذا التحدي بين أظهر العالم ، فكان القضاء المبرم ، وقد
سلط إقحامه على العقول والأفراح ، فلم يهم أحد بممارسته إلا باة
بالعجز الواضح والإخفاق الفاضح على مر العصور والدهور ..
فماذا يقول المكابر؟ .. هل أنزل من السماء .. أو
ماذا .. وإن الذين سمعوا القرآن من أهل مكة ، لم يلبثوا ملناً
حتى أظهروا إعجابهم من حيث يدرعون ومن حيث يجاهلون ..

92
وانطلقت ألسنة بعضهم بالمدح والوصف الحقيقي بشعور بعيد عن الحقد ومنه:

جاء الوليد بن المغيرة مرة إلى محمد بن عبد الله وببدأ يتكلم معه بأسلوب رقيق وبعد نقاش طويل قال أسمع يا أخا العرب فأسمعه آيات من القرآن ... فكأنه رق له ... بلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لثلا تأتي محمداً وتعرض لما قاله، فقال الوليد: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل في قوله: يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فإن الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيدته ولا أشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، وواحده إن لقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن عليه لمشر أعلاه مغدق أسفله، وإن له لعلو ولا يعلى عليه، وإن له لحطم ما تتحت، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر ... وبعد مدة اجتمع بأهل قريش فقال أحدهم أصبحت يا وليد قال لا ولكن أقول: شاعر ثم وقف وتردد ثم قال أقول ساحر فجاءات الآيات تصف ترده:

إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس ويسر ثم أدرك واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر ...

93
ومن هنا نلمع الإصرار على المخالفات والنتائج قد غادرت المقدمة، التي صرح فيها حلاوة القرآن، ومن ثم فكر لإرضاء بنى قومه ولو على حساب الحقيقة التي شعر بها في أعماق وجدانه.

ولا بأس أن نرد هذه الحادثة التي جرت بين رجل من قريش:

أوقفته إلى محمد، كما جاء في كتاب المغازي لابن إسحق:

أرسلت قريش عتبة بن ربيعة وهو رجل رزين هادي فذهب إلى محمد بن عبد الله (١) فقال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أثنت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لملك تقبل بعضها : إن كنت تريد بهذا الأمر مالك جمعنا لك من الأموالاً حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، وإن كان ذلك الذي يأتيك رابياً تراه لا تستطيع رده عنه نفسك، طلبنا لك الطب، وذلنا من أموالنا حتى تبرأ. فلما فرغ من قوله قال له محمد ليس في كل ما تقول واسمع: فتلا عليه صدر سورة السجدة:

فحم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكثرة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا

١) قصة أخرى، ابن إسحق في المغازي بسند حسن.
وَقَرْتُ وَمِن بَيْنِي وَبِينَكَ حَجَابٍ فَأَعَمَلْ إِنَّا عَاملُونَ قَلْ إِنَّمَا أَنَا بِشَرِّ مَلَكُمْ يَوْحِي إِلَيْ أَنَا إِلَهُمُ إِلَهٍ وَاحِدٍ فَأُسَتَّقِيمُ إِلَيْهِ وَأُسْتَفْلِيَهُ وَأُعَفوَنَّ عَلَيْهِ الرُّكَّةَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بَالآخِرَةِ هُمُ كَافِرُونَ...
(1)

حتى وصل إلى قوله:

فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذِرْتُكُم صَاعِقَةً عَادٍ وَثَمُودٍ

ولقد تخير محمد عليه الصلاة والسلام هذه الآيات من الوحي ليعرف محدثه حقيقة الرسالة وما محمد إلا رسول يحمل كتابًا من الخاتم إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من ضباع. وهو قبل غيره مكلف بتصديقه وعمله به والتزول عند أحكامه. لقد جاء عتبة باسم قريش ويريد أن يترك محمد الرسالة والدعوة التي جاء بها ولكن بعدما استمع عتبة إلى هذه الآيات، تيقظ ما كان نائماً من فكره، واستمع إلى الوعيد يهدى فبحر ما كان هاجعاً من عاطفته، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود... لقد وضع عتبة يده على جبينه وقام وكان الصواعق ستلاحقه وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمدًا وشأنه... إنه أثر القرآن ويا للأسف... لم تقنع العقول المكبلة بتقاليد الماضي... ولو أن

(1) فصلت/ 1- 6.

95

http://kotob.has.it
أهل مكة ترددوا في تصديق محمد بن عبد الله حتى يبحثوا أمره ويمحزوا رسالته ويزنوا على مهل ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل مدرك ولكنهم نفروا من رسالة محمد نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما اكتشفوا جريمته وثبتت إدانته .. ولو لم يكونوا على هذه الحالة لأجابوا القرآن في تحديه .. وعاضدو في تقريعه .. ولكن أني لهم .. ذلك .. ? لأن وجود الإعجاز في القرآن ، وروح التحدي تسير في عروق كل من يقرأ آيات التحدي ، لأنه أسلوب منفرد لا يشبهه أسلوب .. ولو كان من أسلوب إنسان لجاء مشابهاً لأحد أساليب العرب ولذا وقع أجل مكة في شبابه الحيرة فقالوا تارة شاعر .. وتارة كاهن ، وأخرى ساحر .. ولم يثبتوا على شيء لاضطراب تقييمهم المخالف للمحاكاة التي نطقت بها أفواههم مرات ؛ وجلبهم القرآن ليلة مرات أخرى . ومما يروى أن نفرًا من كبار قريش ذهبوا لاستماع القرآن سراً ومنهم ( الوالي بن المغيرة - وعمرو بن هشام - وقيس بن هشام - والختن بن قيس ) وبعد أن انتهوا من سماع القرآن من شقوق النواخذ أثناء صلاة محمد عليه الصلاة وسلام انصرفوا فجمعهم الطريق فتلألوا على ذلك وقالوا إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوا واستمتعوا إلى ما يقوله فتستحيهم تلك الآيات فيؤمنون بمحمد وتعاهدوا على ألا يعودوا لمثل ذلك .. فلما كانت الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم وضعه فلما أصبحوا جميعهم الطريق ،
فاشتد نكيرهم، وتعاهدوا، وتحالفوا، ألا يعودوا فلا تعالي النهار. جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس، فقال ما تقول فيما سمعت من محمد. فقال الأخنس ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا نعم، قالوا فينا السدانة. قلنا نعم، قلنا فينا السقاية. قلنا نعم. يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي! والله ما آمنت به أبدا! فما صدهم إذن عن الإيمان إلا العصبية المقيتا كما ترى. وكما قرأت في مواضع شتى. فنزلت الآية تبين تلك العدواة العصبية التي لا تعتمد على حجة منطقية ولا على رد علمي سليم.

و قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تعلبون.  

وبعد هذا كله: نقول للذين يغطون الحق.. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.. وإن الباب مفتوح لكل من يرد على التحدي القرآني علمأ بأن أهل اللغة الأورائ لم يستطيعوا الوقوف أمام تحد القرآن فمن الأولى أن يكون غيرهم أضعف منهم.

وقد أيقن بلغاء العرب معنى التحدي فيشموا من المعارضة لأنهم وجدوا في القرآن ما يغمس القوة، ويحيل الطبع، ويخلذ النفس مصادقة لا حيلة ولا خدعة وهكذا اعتقلهم عن الكلام فيه.
وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم وجميع الأمم اللاحقة للتحدي، وجعل التحدي أكبر دليل لكل مخالف.
فهل استطاع البلفاء مقاومة التحدي بالمثلاء .. أو وقف جميعهم صاغرين فما بال الأقزام اليوم .. الأقزام في الأدب والبلاغة والفلسفة .. يحاول بعضهم أن يطلع مستهتراً بالمنطق - ويناقش أموراً جاذبة وجزئية لأن عقولهم الكليلة لم تستطع مناقشة الكليات العامة فشكوا بالجزئيات (1) كمثال صادق خلال العظم في كتابه نقد الفكر الديني وإن مناقشته للجزئيات ضعفت كبير في حجمه ولبلاده فكره .. وأما إذا قلنا له تعال نناقش كتاب الله كله .. ناقش فكرة وجود الله بحد ذاتها .. وناقش فكرة بعثة محمد رسول الله .. ولى مستندنا خاتراً لا يليه على شيء لخوره ولأن بضاعته مزجاة .. وعثره فيه خليل .. والأسس التي ركز إليها هاوية .. فالمناقشة تكون للكليات وليس للجزئيات علماً بأن مناقشة الجزئيات اعتمدت على بحوث مبتورة وإطالة ضحل ممزق ..
ولذا أقول إن شعور أبلغ الناس بضعه عن أساليب القرآن ليكون على مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع .. واستفادة المادة .. وتمكنه من فنون القول وتقدمه في مذاهب البيان .. فكلما تناهي الأديب في علمه تناهي كذلك في علمه بالإجاز .. وما أهل الأرض

(1) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٢٥/٢

٩٨
جمعاً في ذلك إلا كنفس واحدة فجاء التحدي للجميع.

أم يقولون تقوله؟ بل لا يؤمنون. فلتأتيوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (الطور: 34).

والسبب الكبير الذي يعود لعدم محاكاتهم للقرآن، وإبطال تحديه لهم، على الرغم من شدة تقريعه، وتعتيم بالكفر والجمود وغير ذلك لأن ملكتهما اللغوية كانت سليمة، وقد ملكوا القدرة الفنية، وبلغوا الذروة في الأدب فصار حكمهم عن معرفة، والضعيف إذا شعر بقوة خصمهم الزائدة لا يحاول التفاوض عليه وهذا شعورهم بالنسبة للقرآن ووقوفهم عن معارضته، ولأن القرآن فيه مظهر غريب بإعجازه المستمر، ولا يحتاج في تعرفه إلى روية فبمجرد أن يقرأه من اطلع على أساليب الناس يقع في نفسه معنى الإعجاز، لأنه أمر يغلب على الطبع ويفرده به فيبن عن نفسه بنفسه كالصوت المطور المبالغ فيه الإطراب لا يحتاج الأمر في معرفته وتمييزه إلى أكثر من سماعه وإن من الإعجاز ذلك النظام الموسيقي الواضح في القرآن وهذا ما بينه الكاتب الأديب الفاضل مصطفى صادق الرافعي قائلاً: إنه مما لا يتعلق به أحد ولا يتفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا منه، لتتربى حروفه باعتبار من أصواته ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة، والتشكيك والترقيق والتفشي.

99
والتكرير (1)

وبرى الرافعي : "أن القرآن كان نمطاً واحداً في القوة والإبداع

وإن مرد ذلك إلى روح التركيب التي تنطغى عليها جوانب الكلام الإلهي وهذه الروح على حد تعبيره لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطبعه الناس ولولاها لم يكن، فكانها وضع جملة واحدة، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن هنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة هي صفة إعجازه في جملة التركيب لما عرفت، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومنسوبات العبادات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه".

ولذا تستطيع أن تلمح الصور الرائعة في كل لفظ ولا ترى في حقيقة الأمر ألفاظاً ولكن حركات نفسية في ألفاظ...

وبعد هذا كله: هل بقي في عقلك شك أيها السائل؟ هل بقي في خلدك سؤال؟ فإذا ما زال يعلق في ثنايا الدماغ سؤال فانظر

٨٦٥

١٠٠

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي
معنا إلى هذه الآيات وتعال لنحللها:

فألق الإصباح وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً

ذلك تقدر العزيز الاعلمٍ (1).

انظر إلى هذه المقاطع الأربعة التي ألفت بينها في معنى شامل
هادف، واضح، ليعدل بذلك على ظهور قدرته بعد بيان
مخلوقاته. أليس في كل كلمة منها في نفسها غرة؟

أما تشاهد أن كل مقطع بنفسه درة زمردية هبطت على النفس
لتلبسها قدرة جديدة؟ إنه كلام يصدر عن سمو ورفعة، وتذاكر
قدرة، ويظهر جلياً في عظمة القدر، وتتسم بعزة خالصة. ويجمع
رصانة مع رونق سلس رفيع، ويحقق لي أن أقول إن هذه الآيات
شملت الإيجاز اللطيف، إلى البلاغة الرفيعة، وكل ذلك بخيال
خصب وروح فياضة.

إنها الآية التي انتظمت من البديع، وتضمنت بثناً في كلمة
وختمت غاية في جملة. إنها آية واحدة من آيات الإعجاز.
وتأمل آية أخرى:

فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفع
الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده

(1) الأنساب 96.

101
لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء، لمن الملك اليوم للواحد القهار، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (1).

أنيم النظر في هذه الآية «ارجع البصر كرتين» مع مراعاة معانيها. وفكر ملياً، تجد صفات عالية، وكلمات سامية، أما تلميح ورود هذه الكلمات من مصدر علوي وقدرة ربانية، ولا تحوم عليها أفكار آدمية تعرف ضعفها عن الخوض في بحث وتهديد كهذا.. أي خاطر يرد على الإنسان أن يقول:

فهل يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق، يوم هم بارزون؟

أي لفظ يدرك هذا المضمور، وأي حكيم يهدي إلى ما لهذا من العمق والعلو وأي فصيح يدرك هذا النظم؟.. لا جرم أن البيان الشامخ الذري لا يتركت على سطح الأرض وإنما يتركت على دعائم غائرة في أعمق الثرى.. لقد أطلت عليك كثيرا وما بقي لدى سوى نقاط متنايرة على أن أعني هذا البحث.. لقد عجز الأورال وعجز الأدباء في كل عصر.. فعلي أن أجمع لك أقوال الأدباء في كل عصر عن هذا

(1) غافر 14-17

102
القرآن لعلك تجد في لفظات كل أدب نسمة إيمان أو لمحة إعجاز:

1 - قرأت ما قاله الوليد بن المغيرة عن هذا القرآن: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمشمر وإن أسفله لمغدق وإن ليعفو ولا يعفى عليه وإن له حطم ما تحته.

ويقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ص 88:

تجد في الحكمة، وفصل الخطاب، مجلوة عليك في منظر بهيج، ونظم أنيق ومعرض شيق، غير معنون على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام ولا مستكره على اللفظ، ولا مستوحش في المنظر، غريب في الجنس غير غريب في القبيل ممثليّ ماء وضارة. وطفأها وضارة، يسري في القلب كما يسري السرور، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، وضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على المناول المنتبب، كالروح في البدن، والدور المستدير في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهي.

لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم حميد.

من توهيم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله ووضوح جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن وتداولته القلوب وانثأت عليه الهواجس.

103

http://kotob.has.it
والقرآن كتاب دل على صدق حامله ورساله دلت على صحة قول المرسل بها، وبرهان شهدت له براهين الأنبياء المتقدمين، وبيئة على طريقه ما سلف إلى الأولين تحاهم به إذ كان من جنس القول الذي زعموا أنهم أدركموا فيه النهاية، وبلغوا فيه الغاية فعرفوا عجزهم.

ويقول الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن، آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها الكواكب بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم، وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فافتتحم أقاتها، وامتعت عليه أعراف الضمائر فابتس أفئلاتها، وكم صدوا عن سبيله صداً ومن ذا يدافع السيل إذا هدر؟ وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه ومن كل موانه باب؟ فما كان إلا نور الشمس ولا يزال الجاهل يطمئن في سرابة ثم لا يصنع منه قطرة في سقاته. ألقاه إذا اشتقت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فألفأس الحياة الآخرة، وعما بنا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نعيم الجننان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان. لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ومعنى الخلوذ في دولة الأرض إلى أن تدolle، وكذلك تندى العرب في طفاليهم يعمهوون. وظلت آياته تلفف ما يأفكون

104
فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون...

ولا شك أن قرأته ما قاله الجاحظ في بداية البحث وسأثبت لك ما قاله عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه مراة الإسلام أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آنها الله رسوله الكريم آية على صدقته فيما يبلغ عن ربه، والقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي، والعبري القديم من أهل الفصاحبة واللسان والبراعة في تصريف القول قد سمع القرآن فراعه منه ما راعه واستجاب له هذه الاستجابة التي يعرفها التاريخ وأغرب من ذلك أن أماماً أخرى ليس بينها وبين العرب أيّة صلة قد قرأته القرآن وسمعته في القرآن المطافورة والأجيال المتعاقبة فدانت له وخشيت وأيقنت أنها كلام لا مثيل له شأن آخر. ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير مجري التاريخ وتحويله وها هي الأمم الجاهلة الغافلة التي تعيش في آمة شديدة التعصب للباطل يضرب بعضها رقاب بعض، ويهب بعضها أموال بعض فذاؤها يصبع آمة قد خلقت خلقاً جديداً فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحذ موفور، ونشرت هذه الخصائص كلها بين أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلتها منها آمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرات فاستدلها واستغلها وبسط عليها

105
سلطانه. وقد ألفت كتاب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن، ولكنها على كثيرها لم تقل في أعجازه كل ما يمكن أن يقال لأنه أروع روعة وأبهراً جمالاً من أن يستنفد فيه القول أ. هـ.

ولنفكر ملياً في هذه الآيات:

ً أَفْلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْ جِدُواْ فِيهِ اختلافاً كَثِيراً ، [ النَّسَاءِ : ٨٠ ].

يا أيها الناس قد جاءكم برهم من ربك ونزلنا إليكم نوراً مبيناً ، [ النَّسَاءِ : ١٧٤ ].

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من تبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذننه ويهدفهم إلى صرائط مستقية ، [ المائدة : ١٦ ].

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلَيَّ ولم يوح إليه شيء، ومن قال سألنَّه مثل ما أنزل الله، ولو ترى إذ ظالمون في غمرات الموت والملائكة بعساوته أبينه أخرجوا أنفسكم . . . . [ الأَنْعَامِ آية : ٩٤ ].

وبالحق أنزلنا وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً وقرانياً فرقةً لتقرأنا على مكان ونزلناه تنزيلاً، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ! . . . [ الإِسْرَآءِ : ١٦٧ ].

هذاذكر مبارك أنزلناه أفافتم له منكرون [ الأَنيَّبِ : ٥٠ ].

١٠٦
إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلَنَفِسَهُ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضُلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِيُرُوكَٰٰٗ [ الزَّرَمَ : ٤٣ ]

وَبَعْدَهُذَٰلِكَ الْآياتُ الْكَرِيمَةُ لَا يَسَعُنَا إِلَّا أَن نَقُولُ:
مَا دَامَتْ قُوَّةُ الْخَلْقِ لَيْسَتْ فِي قُدْرَةِ الْمَخْلُوقِ فَلِيَسُ فِي قُدْرَةِ
بِشَرِّ مَعَارِضَةٍ هذَا الْأَسْلُوبُ الْمَعْجِزُ وَتَحْدِي الْقُوَّيِّ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ
فَلَنْنُفِعَ رَؤْسَنا وَنَقُولَهَا بَصَرَاحَةٌ عَلْمِيَّةٍ إِنَّهُ تَنْزِيلُ الْحَكِيمِ
الْخَبِيرِ
وَهَذَا هُوَ الْشَاهِدُ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ.

١٠٧
الدليل الثالث
توجيه القرآن وعتابه للرسول

إن الذي يتلقو آيات القرآن يجد فيه صورتين صورة الإنسان
الضعيف بين يدي الله الخالق العظيم . . صورة الضعيف الذي
يستمد العون من القوي العظيم . . ويستهديه ويستغفره ، ويصع
بما يأمره به ، وأحياناً يتلقى العتاب الشديد ، والتهديد ،
والتنقير ، مما يجعل الإنسان يجد في أعماق نفسه ما يقنعه بالفرق
الذي لا يتناهي بين صفة الخالق وصفة المخلوق . وبين أسلوب
الخالق وأسلوب المأموم . إنها صورة محمد رسول الله هي صورة
العبد المطيع الذي يخاف عذاب ربه إذا عصى . فيلزم حدوده
ويرجو رحمته ، ويُفرغ عجزه المطلق أمامه . وعدم القدرة على
التبديل والتغيير في حرف من كتابه المنزل عليه ؟

فإذا تلقى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أت
بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لي أن أبدل من تلقاء نفسي إن
أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم
قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدركم به فقد لبست فيكم عمراً من قبله أ فلا تعقلون [يونس : ]
نجد في هذه الآية الصفة الحقيقية للعبد العاجز عن تغيير
ما ينادي به وما عليه في هذا إلا البلاغ المبين . . وإن كلمة قل في
القرآن وتكرارها أكثر من ثلاثمئة مرة تدل على أن المخاطب
منفصل عن المخاطب ، ولتظهر فكرة الإيمان والتعليم والتوصية .
و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي [النجم ]
ومع ذلك فإننا نرى الفارق كبيراً بين الصورة المبينة لمحمد
رسول الله وحقيقة الأمر فهذا العتاب الخفيف الذي يشوبه عفو الله
عن رسوله وهو خطابه له في شأن من أذين لهم بالعثور عن القتال في
غزوة تبوك :
وعفا الله عنك لَمَّا أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين [التوبة : 43].
والواضح أن العفو لا يتم إلا بعد الذنب ، وكذلك الغفران لا يتم
إلا بعد الخطيئة وهنا نلمح الصورة الواضحة للضعف المحمدي في
هذه الآية :
إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبي
وما تأخر [الفتح : 1- 2].
109
وفي آيات أخرى نقرأ الوعيد الصارخ .. وهل يعقل من إنسان يكتب بيده تقريعاً لنفسه ..

ولو تقول علينا بعض الأفاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الرتين فما منكم من أحد عنه حاجزين [الحاقة : 44].

فما هذا التهديد .. وما هذا الوعيد .. إلا صادر من قوة أعلى .. موجهة قادرة .. عظيمة ..

والتابع لسيرة رسول الله يجد أنه يعمل عملًا حسب ما يراه مناسباً وإذ بالقرآن يخالله على فعله ، ويعتله ، ويعتله بشكل قاس ، وينقه نقداً مراً .. حتى في أقل الأشياء أثراً وخطراً ومن هذا ما نلمحه في قوله تعالى :

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك [التحريم : 66].

وفي قوله :

وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه [الأحزاب : 37].

وفي العتاب الشديد بسبب استغفاره لوالده :

ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم [التوبة : 13].

110
وفي قوله:

"ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيمًا" (النساء : 105).

وهل سمعنا في آباءنا الأواخر من يضم نفسه بالعمل مع الخائنين .. فلو كان القرآن من عند محمد لما وجدنا فيه هذا العتاب والتقريع والتوجيه القاسي والنقد المستمر لكل عمل يعمه مخالفاً فيه الأصول العامة للشريعة ومن ثم فلنسعى إلى هذا النوع القاسي من التقريع الشديد ، والنقد العميق للسلوك النفسي ..

ما كان النبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (الأنفال : 67) .

ومناسبة هذه الآية أن الرسول ﷺ استشار أصحابه في أسرى بدر ، فجاءوا الجواب متعدداً فأبو بكر قال يا رسول الله الفداء ، وفي المال الذي سيصلنا منهم قوة للمسلمين ولعلهم يسلمون. بعد هذه المعاملة الطيبة .. التي عوقم بها الأسرى .. وقال عمر : يا رسول الله إنهم رؤوس الكفر . وصناعي قريش فليضرب كل منا أخاه أو قريبه ، وتكون قد انتهينا من أشدهم قسوة على الإسلام والمسلمين ويقول الرسول تحليلًا لجوابهما : إن الله ليلين قلوباً فهي كالجفاء وإن الله ليقم قلوباً فهي كالحجارة ، ويمضي على رأي

111
أبي بكر ومن ثم تنزل الآيات مخالفنة لرأي أبي بكر. وعمل رسول الله. ويرضى الفداء من الأسرى، ثم يخالف عمله بهذه الآيات - ولو كانت من عنده - ثم كيف تجادل عمراً في رأيه ويتهمه بالفسحة ثم يعدل إلى هذا الرأي دون سبب ... أما تشاهد تناقضاً ملحوظاً لو كانت الآيات في القرآن من عمله وأسلوبه ونسج خياله ... أما تلمع فكرناً مضطراً قلقاً متخبطاً يجعل من نفسه مهلة لأصحابه ولكن الأمر ليس أمره وما هو إلا رسول يوجه إن أخطأ ويرشد إن حاد عن النهج الإلهي وهذه الآية وفيها العفو عن هذا الخطأ المرتكب. وقال الرسول « لو نزل العذاب لما نجا منا إلا عمر » ولكن العفو من الله ... فليعتبر من كان في عقله ذرة فكر وليجب على هذه الحقيقة الأبدية.

ولا بأس أن نتابع الآيات التي فيها التوجيه والتشريع ... وهذا تقع عينه بعد عمل قام به رسول الله بحسن النية، والرغبة في هدایة عظاماً قريش. ظاناً أن في هديتهم هدایة للعرب وهذه الحادثة تبين لك يا أني القارئ مقدار عمق الفكرة التي يوجه إلیها الرسول وكان قد غفل عنها أثناء اضطراب جبل الدعوة، وهكذا اشتدت الأزمة بينه وبين قريش، حتى دعوه لاجتماع معهم ... وأثناء اجتماعه في - نادي قريش - على الرغم من خطورة هذا الاجتماع وما يؤول إليه من نجاح أو إخفاق - يذهله منه رجل أعمى ... ويتكلم مع الرسول يريد الإسلام ... ولكن الرسول
يسترسل في حديثه معهم، آملًا في هديتهم، وقد أيقن أن في هديتهم هداية لقريش ومن ثم للعرب جميعًا، ثم يندو ويتفتظ هذا الأعمى بألفاظ لا تسمع ... فما كان من رسول الله وهو منهمك في حديثه مشغول في بحثه إلا الإعراض والصد وقدم عيس في وجهه لعله ينصرف ويشعر عظماً قريش أنه ليس مشغولاً عنهم وأنهم بهمهمه، وهذا الرجل هو عبد الله بن أم مكتوم ولا يتب كأن نقرأ هذه الحادثة كما جاءت في تفسير المنار : (عندما جاء عبد الله بن أم مكتوم إلى رسول الله وهو يدعي أكباؤ رجال قريش إلى الإسلام وقد لاح له بارقة رجاء في إيمانهم ويتحدثون معه وقد علم أن إقباله على غيرهم ينفرهم، ويقطع عليه طريق دعوتهم، وكان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب، فلولى عنه، وتبلى بهذه الفكره، ولم يكن يعلم قبل إعلام الله تعالى له : أن سنته في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم، وأوساطه، دون أكباؤ مجرميه المترفين ورؤسائها) في هذه المشكلة أنزل الله بعض الآيات من سورة عيس : بحقه :

"عيس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكي، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فانت له تصدى، وما عليك إلا يزكي، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تنهى كلا إنها تذكرة ..." [سورة عيس : 11]
فهل ترى أشد من هذا التقرع، ولو كان الكلام من بنات أفكاره لما سار القلم على هذا المواء ولما مضى القلم بهذا التقرع، وأي عاقل يرضى أن يسجل لنفسه تقرعاً يبقى مستمراً مع بقاء كتابه... يا للعجب... يا للخزي... يا للعار... كيف يرضى العقلاء أن يقبلوا بهذا...» وولاء أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلًا، إذن لا أذقناك ضعف الحياة، وضعف الممات، ثم لا نجد علينا نصراً...

محمد يقرر نفسه... لا يقبله إلا صغار العقول... والمأمونون من الناس، ومما جاء أن رسول الله عندما أنزلت هذه الآية أي عيسى وتولى... بكى حتى إنه لم ير أمامه، وصار يتلمس الجدران كي يصل إلى داره من شدة حزنه، ولا جرم أنتنا عندما نصغي إلى هذه الآيات المرشدة المؤدية المعاطية، المنذرة، يبدو لنا رسول الله مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربنا، ذي القدرة القاهرة، والقوة الكبرى، والإرادة التي لا يعقب لها، ثم لا مانع أن نتابع هذه الصور المتعددة، التي توضح لنا الفرق بين الذات الإلهية وشخصية الرسل... ولنقرأ هذه الآية التي هي أشد إنذاراً وتهديداً من سابقتها: في قوله تعالى:

فهذه الآية في حقيقتها هي قمة التهديد والوعيد، ولا تبقى لعاقل مهماً من القول، أو شروداً في الذهن، وقد وضحت بلا
غموض البدل السحیق بين الذات الإلهیة الآمرة المسيطرة المهددة، وبين الذات المحمدية البسيطة المنفذة، ولا بأس أن نتصفح هذه الآيات:


لى عليكم هداهم

لست عليهم بعصیر

فذرني ومن يکذب بهذا الحدیث سنتدرجه من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدي مثنی [القلم : ]

ولقد أوجي إليك وإلى الذين من قبلك لتكن أشركت ليحظن عملك ولتكون من الخاسرين [الزمر : 96]

يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنین ً

يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ...

قل إنما أنا بشر مثلكم يوجي إلي إنا إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ً

أما تبصر في هذه الآيات السالفة الذكر، الدور الوحيد للرسول والهدف من رسالته والقدرة التي يملكها ... أنه الرسول الذي يمثل دور التذير البشیر ...

وهماك نمط آخر في القرآن ... بدنا على اختلاف
الصفتين ... عناية ووعود لهذا الإنسان ؛ وهل يعقل أن يعد الإنسان نفسه في كتاب مسفر يميزه كما يقول الألفاكون ...
ففي قوله تعالى: "فربك لسألهم أجمعين عما كانوا يعملون ، فاصعد بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إننا كفيناك المستهزئين" [الحجر : 146] .
إنا لنصر رسولنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [غافر : 52] .
وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخفف منهم في الأرض كما استخفف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتفض لهم ...".
وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتوعدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ... ليحقق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون" [الأنفال : 7] .
وأعد النظر في هذه الآيات التأديبية التوجيهية التي يلتقاها الرسل من السماء : "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدابة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ف 컴 فتكون من الظالمين" .
وفي قوله تعالى: "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم 

116
بالغدابة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغملاً قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً } [الكهف : 28].

وفي قوله تعالى : { وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفاؤاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم آية ، ولل شاء الله تجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين } [الأنعام : 125].

وفي قوله : { ولو تقول علينا بعض الأفوايل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الونتين }. 

وفي النهاية بعد أن كشفنا الفرق بين الدلالات الإلهية والشخصية المحمدية ، لا بأس أن نوجه النداء إلى كل منصف أن يبحث في هذا الكتاب ولو مرة واحدة ، لأن أكثر بل جميع المناهضين له، أقول بصراحة ، لم يقرأوه ولا مرة واحدة ، فكيف تنكر ما تجهل فقدقيل : { إن الإنسان عدر ما يجهل }. 

فالمرتب لقراءة القرآن يرى صفة الرسول الملتقي للولحى الداعي لما أمر به : { قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنا إلهكم إله واحد ... }. 

ولو كان أمراً فيه غموض ، لأبصروا الاندماج بين الشخصية المحمدية والذات الإلهية وما قال بهذا أحد من العالمين إلا 117
مستشرق معرض، أو أفلك مزور، أو مأمون الفكر، مشبوه الهدف.
ولذا قال كفار قريش إبان البعثة وهم المتضمنون باللغة ومجازاتها،
ويلاغتها ويعرفون إلى أيهم ترجع الضمائر ويفهمون لغة
التخطاب.  ينتمون من ذلك لم يستطيعوا أن يقولوا أبداً أن
هذا الكلام من عند محمد . بل قلوا إنما يعلمه بشر . . .
لكي يتجنبا الحقيقة والإقرار بالنبأ وبالتالي سيطلب منهم الخضوع
لإذا الرسول وفي هذا ضياع لسيادتهم المزعومة، وهدر لمكانتهم
بين قومهم، فالباحث المنصف يجد إذن الفرق الشاسع، والبون
الواضح بين الرسول المرشد، المبلغ، المنذر، المبشر، وبين
الأدلة الإلهية ذات القدرة الفعالة المحكمة لكل وعد وعدت به . . .
وقيل إن هذه التقيعات خرجت من ذاته، بعد ندم ووخز
ضمير، ونستطيع الرد على من قال ذلك: فلم كانت هذه التقيعات
المؤلمة صادرة عن مكررة عن ندمه ووخر ضميره حين بدأ له خلاف
ما فرت من أمره، لما كان ليعلمنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنين
التقيع؟ أن يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء
لحيرته آرائه، بل إن هذا القرآن لو كان يفيض من وجدانه، كان
يستطيع عند الحاجة أن يكتب شيئاً من ذلك كما يفعل الكثير من
الشعراء والأدباء . . . وخاصة وهو بحاجة إلى إظهار نفسه بظهور
الكامل المتكمل الذي لا يعترف النقص، بل عليه أن يظهر نفسه أنه
مصدر لكل كمال، ومولع العصمة بل منازع ولكنه لو كان كاتماً،

١١٨
لكن أمثال هذه الآيات فإنه الوحي فلا يستطيع كتمانه والوحي هو
القائل:

إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من بعد ما جاءهم الهدي أولئك يلغون الله ويلغنهم اللاغون ... [التكوير: 24].

وعليها أن نتدبر هذه الآية في نهاية بحثنا:

والضحى والليل إذا سجى، ما ودّعك ربك وما قلي، وللاخرة خير لك من الأولى وله سويف يعطيك ربك فترضي، ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالًا فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأما اليتيم فلا تقه وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث 

وفي هذه الآية إمرة لأولى الأبصر:

ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسر إِن مع العسر يسر إِن فرغت فانصب وإلى ربك فارغب.
الدليل الرابع
هل كان للرسول معلم؟

افتضت طائفة من قريش وجود معلم من البشر لرسول الله، وقال بعضهم: غلام رومي أعجمي نصراني، يشتغل في مكة قيناً (حداداً) يصنع السيوف، وكان الغلام رغم عاميته ملماً بالقراءة والكتابة، ولربما وقف محمد ذات مرة أمام حانوته فقالوا هذا هو معلمه وقالوا: ِّإِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرَّ. 

وبعد فترة وجدوا في هذا هزاً من أنفسهم، ومن شعرائهم ومن كبرائهم، فرفعوا الاتهام إلى مستوى آخر، قالوا: أساطير الأولين اكتسبها فهي تغلب عليه بكرة وأصالة علماً بأنهم مجمعون على أميته بلا خلاف بينهم...

وقال المستشرقون: إن الراهب بحيرة كان يعلم الرسول وهو من أتباع الأريوسين الموحدين - علماً بأن الرسول قد لقيه في طفولته خلال سفرته مع عمه أبي طالب. ولا تأس أن نناقش هذا الموضوع الخطير للتعرف مصدر الرسالة، ولنرد على فرضيات قريش ومن يتابعون هذه الافتراضات في عصرنا الحاضر، لأنه إن ثبت بطلان الصلة مع الغلام الرومي ومع الراهب بحيرة تأكد...
مصادر القرآن بأنه من الوحي ...

فالمذي زعم أنه كان للرسول معلم !. . . تقول له ، قل لنا ما اسم هذا المعلم ومن ذا رآه وسمعه وماذا سمع منه ومن كن ذلك وأين كان فإن كلمة بشر تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا نسمع دعوهم بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون الله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم ، فيقال لهم كما قيل لهم : قل سموهم أم تبنونه بما يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . . أما كان يقرر بكفاز قريش أن يرافقوا محمدًا وهو فيهم وبينهم ، ولا يبتعد عن ديارهم ، يجمعون الناس على إثبات دعوهم . . وهذا لعمري هو الإفك العظيم . . بل تقول : هل ولد الرسول في المريخ ، أم نشأ في مكان قصي عن العالم ، فلما يهب على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ثم كان لا يرون بعد ذلك إلّا لمااماً ؟ ألم يولد في حجرهم ؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم ، يصبحهم ويمسيهم ؟ ألم يكونوا برونه بأعينهم في حله ورحيته وصباحه ومسائه ؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . . نعم إن قومه قد سوغت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ليدرؤوا بها عن أنفسهم الجدل الطويل ، فقالوا إنما يعلمه بشر . . ترى هل هم جادون في هذه التهمة ، وهل يتهمون بالتعلم من بشر ، له تلك المنزلة العلمية التي يستحق بها مكانة الأستاذية

131
لمحمد...؟

كلا إنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين، وإنما كان همهم أن يدرؤوا عن أنفسهم معركة السكوت والافهام، فأي صورة تتفق لهم من صورة الكلام بالصدق أو بالذب، بالجد أو بالهزل...

وتطرح المسألة على بساط البحث من الرجل الذي زعموا أنه يعلم محمدًا، ترى هل نظفهم قد نسبوا ذلك إلى رجل منهم؟ لا... فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلا جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم.

أم تحسبهم قد نسبوا ذلك إلى معلم في المدينة المنورة، أو في بلاد الشام وذلك بسبب إقفار العلم والمعرفة في مكة - وقذ سار بعض الملحدين على المنوال نفسه وكرروا ما قالت قريش بدعواً بوجود معلم لمحمد ومنهم من بحث الموضوع وتأهبه في التوافات المعرفة ومنهم من لم يكثر بهذا الموضوع - ثم وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان:

أولهما: أن يكون من سكان مكة نفسها لترويج دعوى أنه يلائيه ويملي عليه بكرة وأصيلاً.

وثانياً: أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا؛ وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها عند

١٢٢
حداد .. إنه حداد رومي .. نعم وجدوا في مكة غلاماً بسيطاً لم يكن أمياً ، ولا وثنياً مثلهم بل كان نصرانياً ، يقرأ ويكتب فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمع .. ولئن سألتهم : هل كان هذا لهذا الغلام الوقت الكافي لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، ورد متشابهها إلى محكمها ؟ وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم ؟ لعرفت الجواب ، إنه غلام حداد منهمك في مطرقةه وسندانه ، وإلى كان عامي الفؤاد ، لا يعلم الكتاب إلا أماني ، أعجمي اللسان ، لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه . ولكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقبه الأستاذية التي منحوه إياها على رغم أنف الحاسدين !!

علماً بأن البلاء من قريش لم يستطيعوا مضاهاة القرآن كما مر معنا في بحث المعجزة الكبرى وهكذا ضاقت بهم دائرة الجد ، فما وسعهم إلا فضاء الهزل ، وهكذا أمضوا في هزلهم ، حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلمه الأدب من البغاء ! وكيف بهذا هزيمة وفضيحة لقائله : ًّ لسان الذي يلحنون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ». 123
ولقد رأوا في هذا الأسلوب، من حلاوة الفكاهة، والملحة.
مايسيغ حرارة الزور والبطل، ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفى صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواهم وقود قص القرآن هذا بقوله:
١٤٨
إذا رأوك إني أتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولًا... ثم يجيب ويخفف عن الرسول بقوله:
١٤٩
أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أصل سببلًا...
١٥٠
ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية يقولهم:
١٥١
وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم وعلى مر العصور أنهم كانوا أجهل الأمم وأبعد الأمم عن المحاكمة المنطقية تجاه المصلحين... والغريب كل الغرابة أن يقول: غلام سوقي غريب عنده من العلم ما ليس عندهم، ولا يمكن لهم أن يأتوا بكلام شبه له، فياله من نطق، كان العي في موضعه خيراً لهم وأسرارهم، ويله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به كرامتهم ومكاناتهم وأنفسهم من حيث لا يشعرون...
١٥٢
ويا ليت شعري أن لهذا الغلام أن يكون مرجعًا علميًا كما أرادوا أن يصفوه، فما الذي منعمهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداونه من جنس.
دائه، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدد للعالم صفحته في التاريخ شرف الأستاذية، أو يتولى بنفسه تلك المكانة العالية؟ وإننا لنتعجب من رجلٍ أوجد بحثًا ثم لا يتفهظ بأنه له... كيف فكرن أوجد فكرة متكاملة وعقيدة شاملة؟؟؟؟

وأما من قال بأن معلمه كان بحيرة الراهب فعليًا أن تعرف فترات اللقاء بينه وبين محمد الرسول... فإن أمر لقائه معه كان واحدًا لا ثاني له، ولم يكن مستورًا، بل كان معه أناص... فعندما سافر في المرة الأولى إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب، كان لفترة قصيرة وقد حدثنا التاريخ الذي سجل سيرة محمد... ما حدث وما جرى في هذا اللقاء... وهل يعقل أن رسول الله جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته!! ولماذا انتظر منذ صغره حتى الأربعين ولم يصرح بأمره... ولماذا لم يدع إلى هذه الرسالة بحيرة الراهب بذاته؟... ولماذا لم يتخذ خصومه من قريش هذه الحجة مع شدة سعيهم في هدم دعوته والتجاهل لأوهن الشهادات في تكذيبهم، وقد كان هذا السلاح، أقرب إليهم، وكان وحده - لو كان حقيقةً - أمضى في إبطال كل ما لجؤوا إليه من مهارة ومكنارة... وإن سكوت أهل قريش عن ذلك، وسكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده. لأنه ليس من الهبات الهيبات التي يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد. على أن التاريخ لم يسكت بل

135
نبأنا بما كان من أمر اللقاء بين الراهب بحيرة والرسول ﷺ، ولقد حدثنا التاريخ عن راهب الشام قائلًا: إنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه سمات النبوة الأخيرة وحليلتها في الكتب الماضية مما أنطقه بالبشرى إلى عمه قائلًا له: إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم وهكذا أثبت لنا التاريخ وحق لنا القول: بأن من عرف للتاريخ حرمته، وآمن بوقائعه كما هي، كانت هذه الوقائع رداً على كل زعم باطل، وكل فكرة لا دليل لها.

وهذه وقائع التاريخ كلها تشهد كذب التحصصات الملفقة في هذه الحادثة التي ما جاءت إلا بافتراءات مدحودة لمستشرق حديث. إن يبنش القبور لعله يجد مطلعًا لهذه الشريعة الغراء.(1)

ومن قائل يقول إن التاريخ قد كتبه المسلمون ونقوحو، وتركوا كل ما ينقض عقيدتهم والجواب على ذلك بسيط. أما كان الغزل ينقض العقيدة، أما وجد له من ينقله ويفحظه وكذلك العصبات القبلية أما تختلف الشريعة، أما وجد من يتبناها ويدفع عنها حتى عصرنا الحاضر. ولا عجب أن يكون في عصرهم منافقون

(1) صدر كتاب حول هذا الموضوعهما (قس ونبي) لأبي موسى الحربي وكتاب (الإسلام بيعة مصرانية) لإلياس المر وستقوم بالرد عليهما بكتاب مستقل إن شاء الله تعالى.
ومسيحيون ويهود .. لماذا لم ينقلوا هذه الفكرة .. بل تجد أول من قال ذلك المستشرقون الجدد .. بعد أن أذهلهم الحجج وضاقت عليهم البراهين .. وضاعوا في المبادئ والقيم السامية التي وجدوها في القرآن .. فلم يستطيعوا الرد إلا بهذا الإفاك الذي لا يصدقه إلا مخبول ، معجب بهم ، مأمون بالباطل .. وأقوله ، ونتساءل .. لماذا لم يدع بحيرة بذاته هذه الدعوى .. وهل يعقل لرجل عنده هذه الأفكار والأراء العالمية .. ثم يتركها لتبسب إلى غيره .. ونحن نرى أن الكثير من الأدباء والمؤلفين يتحلون أسماء كتب ليس لهم إما ترجمة أو تفقيحا .. ثم يدعون أن هذا الكتاب أو ذاك من بئات أفكارهم ..

ونستطيع القول بأن محمدا جاء بأفكار تناقض المسيحية واليهودية .. وهل يعقل لبحيرة القبول بعرش آراء تناقض عقيدته التي مات عليها .. وحاول القرآن كذك أن يصحح الأخطاء التي كانت عند اليهود والنصارى .. يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق .. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمه ..

ويقول الأستاذ أمستاسي هايرون في كتابه ( تراجع الأرباب ) إن وحدانية الله في الإسلام لم يسبقها مثيل لها في صفة الوحدانية التي لا هوادة فيها ولا في غيرها من جملة الصفات المستفادة من

127
أسماء الله الحسنى)، وهو من كبار علماء مقارنة الأديان، فأنى لبharga بهذه العقيدة الشاملة الموحدة، التي لا مثيل لها في تاريخ الأديان؟؟. .

علماً بأن محمدًا لم يطلع على الكتب الدينية السابقة. ويقول المؤرخ ر.ف. بودلي "إن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والحديث ظهرت بعد موت محمد بقرون".

وسنتطيع التساؤل: هل كان في العلماء والحكماء يومئذ من يصلح أن يكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية والذات المعلمة؟

ويقول الملتهدون "إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل"(1).

وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح فنحن سنأخذها باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالًا واضحًا لعلماء عصره فليقرأوا ( الزهراوي البقرة والآل عمران) وما فيها من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتاريخ والأحكام، أو ليقرأوا ما شاءوا من السورة المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب، ولينظروا بأي لسان

(1) النبا العظيم ص 51.

128
يتكلم عنهم القرآن، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات. وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات... فإن أنت أحببت زيادة بيان، فإليك نموذجا من وصفه وتدقيقه لأغلاظهم ومغالطاتهم التاريخية في أهل الكتاب لم تحققوا في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد أ فلا تعقلونه [آل عمران : 65].

وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله [التوبة : 30].

ويقول في كيفية إنكار المشركين للمثل الذي ضرب بالمسيح عليه السلام، ولما ضرب ابن مريم مثلًا إذا قومك منه يصدون وقالوا آل إهلنا خيرًا أم هو؟ [الزخرف : 57].

فهل يعقل لأصحاب كانوا تأتيهم في دجاجظ الظلام، وعقاب الضلال أن يصبحوا أساتذة لرجل تخلى عن كل فكرة لديهم ولم تظهر عنهم مقدمات التصحيح في أفكارهم وعققيتهم. ومن هو بحيرة في التاريخ لو لم يكمل عم رسول الله. إنه واحد من الذين طوتن الأيام... ثم هناك فكرة أخرى كانت مستشرية عند النصارى وهي احتكار العلم عند الرهبان ومنهم بحيرة فكانوا لا يعلمون الناس ما تعلمهم إلا بعد مشقة وعذاب وخدمة لهم... وهذا ما يرد على افترائهم... فكيف لا يعطي علومه للكبر العاقلين ثم 139
يعطي علومه لطفل صغير اجتمع به مصادفة .. ثم يعطيه لغة جامعة لللهجات العرب مجتمعة ، لأن القرآن قد جمع في طياته ألفاظاً من لغات عدة ولهجات متناثرة ولذا قال الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر " إن القرآن فيه أربعون لغة عربية عدّد منها قريش وهذيل وكنانة ... ". فأتي للراهب أن يكتب في لغة هؤلاء جميعاً من عند نفسه ، وأتي لمحمد العربي الأصيل أن يأتي بهذه اللهجات الكثيرة المتنوعة ، وما هذا إلا دليل على القدر الإلهية الجامعة لهذه اللهجات والألفاظ ، ومن قال بأن هذا القرآن من صنع بشر ، أو بنطقين راهب أو بتعليم غلام ، إنه لعمري هو المنطقة الملتوية الذي لا يعتمد إلا على عادات وضلال عميق الجذور ، لا يريد صاحبه الرضا بالحق ولا بالآدلة المنطقية ... وما هو إلا حاقد مافون أو مكابر جهول ، أو متعصب أعمى وعلى عقله غشاوة ...

وبعد هذا كله لا يسعتنا إلا القول بأن هذا العلم الجديد الذي جاء به محمد وليد نعلم جديد ومهما حاول المكابرون أن يصفوا الاقترارات ويشكروا فإن يفلاحوا لأن الشمس ساطعة ونورها مبين وإن هذا القرآن لهو الدليل القطع على أن التعليم صادر من قوة ليست من قوى البشر بل هي أعلم وأعلى وأشمل إنها قوة الله جل وعلا ...

ويبقى سؤال آخر : هل كانت العقيدة المنبثقة من ذات محمد ؟
إن الإنسان بفطرته إذا أبدى فكرة لا ينسبها إلى غيره بل يصرح وينادي بها لنفسه وما كان محمد في هذه السيرة خلال دعوته إلا مبلغًا ورسولاً أميناً، وقدرة عملية للفكرة التي نادى بها... إن محمدًا لم يهجم على الإيمان هجوم يوم ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل غيره ولكنه تردد حتى استوقف ورجع حتى اطمئن وما كانت هذه العقيدة التي آمن بها إلا نورًا شع من السماء إلى الأرض فأمام الإنسانية بالمنهج الكامل وقال تعالى مبيناً مصدر هذا النهج القوي:

علّمَه شديد القوي ذو مرة فاستوِي وإن النفس البشرية عندما تقترب من معين القرآن تشعر بصفعتها وعروجها إلى مدارك الكمال وتتيقن بسمو مصدره وتؤمن بأنه تنزيل حليم خبير... ولا بأس أن يتصفح القارئ هذه الآيات ليلمح القدرة الناطقة، والقوى الفعالة في هذا الكون:

نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرأيتم ما تمنون، ألم تخلقون أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسوبقين، على أن نبدل أمثالكم ونتشكيم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون. أفرأيتم ما تحرثون ألم تزعون أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلنا حطاما فظلتم تفكهون، إننا لمغرون بل نحن محرومون. أفرأيتم الماء الذي

131
تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلنا
أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرايم النار التي تورون أنتم أنشأتي
شجرتها أم نحن المشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للموقين
فسحب باسم ربك العظيم ﷺ [الواقعة : ۵۷ - ۷۴] .

ولقد تفتقت قرائح تنادي بأن الإسلام بدعة نصرانية وصدر هذا
الكتاب لمؤلف حاقد هو إلياس المر أراد أن يثبت خلال بحثه أن
ورقة بن نوفل هو الذي علم محمدًا ﷺ التора و الإنجيل و تم اتفاق
بين خديجة وورقة و محمد ﷺ على إظهار هذه المسرحية ( البوأ )
فقام وأعلن هذا الدين الجديد و بمحاولة ياسة واضطراب فكري
يظهر النقاط المشتركة في القصص الموجودة في التора والإنجيل
فيفول ( إن القرآن أورد قصص الأنبياء الأولين كما أوردتها التورة
فلا زيادة منها ولا نقص إلا في الأشياء البسيطة التي لا تؤثر في
جوهر الدين اليهودي ... إلخ

إن الكتب السماوية كلها من عند الله عز و جل وما جاء الرسل
لا متتابعين حتى تصل الإنسانية إلى مرتبة النضج العقلي لفهم
اللولي واستيعاب محتواه والتفاعل معه يفكر تجريدي راقي وهذا هو
الإسلام الذي هو نهاية مطاف تسلسل الأنبياء .

فالتشابه في قصص الأنبياء ما هو إلا دليل قطعي على صدق
نبوة محمد ﷺ ، وصدق الولحى ، وهو الدليل المؤكد لصدق

١٣٢

http://kotob.has.it
القرآن في سرده لهذه القصص التاريخية الخالدة للصراع بين الحق والباطل.

وأروع جواب أوردو الكونت دي كاستري في كتاب محمد رسول الله لآرتيين دينيه قال أما فكرة التوحيد فستقبل أن يكون هذا الاعتقاد، وصل إلى النبي محمد من مطالعته التوراة والإنجيل. إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب الثلاثية وهو منافض لفطرته، مخالف لوجوده منذ خلقه، فظهر هذا الاعتقاد بواسطة دفعه واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وماهته في نبوته (1).

وما أوردو موريس بوكاي في كتابه الإنجيل التوراة القرآن على ضوء المعافر الحديثة من دراسة تحليلية لللكب المقدسة وعدم توافقها مع المعافر العلمية، وتناقض بعض آياتها مع بعض لدليل قاطع على أن القرآن له استقلالية تامة عن الكتب المقدسة المنسوخة بما قدم من أداة علمية حديثة متواقة مع المعافر العلمية ولم يتناقض معها. بل توافق مع العلوم الحديثة بشكل رائع.

والمنتبع لسيرة الأنبياء في التوراة يجدها في افتراق بين قصة داوود عليه السلام في الإصحاح 15 عن ذكر قتل قاتله أوريا ليأخذ

(1) من كتاب محمد رسول الله لآرتيين دينيه.
زوجته منه.

أما ما ورد في القرآن فأنبياء بني إسرائيل لهم في التوراة ذكر يتناقض مع ما جاء في القرآن وما جاء به محمد رسول الله للعالمين لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم.

إنه صوت النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الأرض، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلاً عن قومه، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً، لا ينتفع بعقله.

إنه صوت النبوة الذي يقول إني بشر مثلكم وأنا إنسان كسائر الناس وما أنا إلا بشير ونذير فأي استقاء، وأي تأثر، وأي مصدر يستطيع أن يولد فيه هذه العقيدة الجديدة التي تتناقض مع الكثير من تلك الأفكار المتناثرة في التوراة والإنجيل.

إنه نداء متفرد في تاريخ الأديان، إنها النبوة الخاتمة للنبياء والناشئة لكل العقائد والأديان بعد نضح العقل، وسمو النفس وتنامي الحضارة ليرتقي بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال بفكر تجريدي واعٍ.

١٣٤
الدليل الخامس
العصمة من القتل

بعد بحث طويل عن تبيان مصدر القرآن، رأينا أن القرآن وعد محمدًا وعودًا كثيرة واستطاع تنفيذها لأنها صادرة عن قوة فعالة وأعظم هذه الوعود، هذا الوعد الخطير وهو العصمة من القتل، والحماية لشخصية الرسول، على الرغم من تضاعف الحوادث المبكرة لهدر دمه ونرى القرآن بعده قائلًا: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمه من الناس.

إن هذا واعت الله ضمان لا يملكه بشر، ولو كان ملكاً محجبًا تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه، فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الخبيثة، وهم في مواقفهم، يحيط بهم الجند والأعوان، ولكن انظروا مدى ثقة الرسول بهذا الوعد: "روى الترمذي والحاكم عن عائشة قال: كان النبي يُحرس بالليل، فلم تزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله" وحقاً لقد عصمه الله منهم في أكثر

المائدة/17

135
من خمسة مواضيع كان خطر الموت أقرب إليه من شراك نعله، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده.

ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل النبي ﷺ تحت شجرة، وعلق سيفه فيها، فجاء رجل من المشركين، فأخذ السيف، فاختطفه وقال للنبي ﷺ: أتخافين؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك، ضع السيف، فوضعه. وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف.

ومن ذلك هجرته بعد اتفاق القرشيين لقتله، وإجماعهم على ذلك، وبدأ التخطيط ولكن العصمة حالت بينهم وبينه فقال ابن إسحق:

لما رأى قريش أن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليها، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذرها من خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة يتأثرون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه. فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجه الرأي فيما بينهم...

١٣٦
أيجبونه في الحديد ويغلقوه عليه باباً ثم يترتصون به ما أصاب أشباحه من الشعراء ...؟ ولكن هذا الرجل لا يلق سمعاً، فقد خافوا أن يأتي إلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، فيخلقوه ويتزعمون من بين أيديهم ... أخرجونه من ديارهم ثم يتركوه يذهب حيث شاء ...؟ ولكن هذا الرجل كذلك لم يلق أذناً صاغية، فقد خافوا حلاوة منطقه، وسحر بيانه وقدرته على اجذاب القلوب مما يجعل له أنصاراً في كل مكان يذهب إليه، فينتشر أمره ويشتد ساعده، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمتهم وطمأنيتهم ... أيقتلوه ...؟ ولكن كيف يقتلونه وقد أحاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه؟ ومن أي قبيلة يمكن أن يكون القاتل؟ وأي قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بني عبد مناف؟ وما زالوا يقدرون ويدرون، ويتبادلون وجه الرأي فيما بينهم حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمومة العاقبة. ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلداً شجاعاً ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعاً بسيوفهم ـ ضربة واحدة ـ يقتلوه، فيتفق بذلك دمه في القبائل كلها، وإذا لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلو العرب جميعاً، فيرضون بالدية، فيذهبونها إليهم. وبذلك ينتهي أمر محمد ودينه، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة وجمع الشمال.

وهكذا دبروا الخطة ورسموا خططها، على أن ينفذوها ليلاً، ولكن الله تدبرى فوق تدبيرهم ويدأ فوق أيديهم، فقد أوحى
الله إلى رسوله بما دبروا خفية، وأعلمه بما كادوا له من كيد، وأذن
له بالهجرة إلى المدينة، وعرف وقدر أن قريشًا ستوقف الحصار
حول داره في الليل، لتقطع عليه طريق الفرار، ولا بد أنها سترصد
أفواه الطرق، ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج من مكة،
وستبذل لتنفيذ خطتها كل جهودها، وخرج ليلاً بعد أن وضع ابن
عمه علياً رضي الله عنه في فراشه تمويهًا للعدو، وليعطي الناس بقية
الودائع التي كانت لأهل قريش، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل
على مكانته من قومه وعظم أمانه.

وهكذا تمت الهجرة، وفيتان قريش يرصدون دار رسول الله
ليقتلون عند خروجه، فليس من عادة العرب أن يقتلون شخصاً في
عقر داره، وتمت العصمة للرسول من القتل ونزلت الآية التي
tصف هذه المؤامرة التي أحكيت حول رسول الله عليه الصلاة
والسلام: { وإذ يمكر بك الذين كفروا ليبتكروا أو يقتلكم أو
يخرجوكم، ويمكرون ويذكر الله والله خير الماكرين}. ([الأنفال: ]).

وكان خروجه في وسط الليل، والليل مخيم على الفتية الشباب
باستاره. وهذا ما بينه القرآن في قوله: { وجعلنا من بين أيديهم
سداً ومن خلفهم سداً فأغشيئاهما فهم لا يبصرون } [يس: 7].

وانطلق رسول الله إلى الغار عاملاً بالأسباب، ليرشد البشرية

138
من بعده إلى قيمتها ... وشاهد الكفار الغار، ولكن العصمة
لاحقته هناك، فلم يدخلوا إليه على الرغم من وصولهم إلى بابه،
وهنا نرى ثبت رسول الله واطمئنانه، وكيف أن السكنية قد
غمرته، والبقين ملأ قلبه، وأحاطه الهدوء من كل جانب، وكل
هذا يدل على مقدار ثقته وقيمه بالعقيدة التي ينبض من أجل
تثبيتها ...

ومما يروى أن فتيان قرشي لما وصلوا إلى الغار، وسمع أبو
بكر ﺎ. ﺚ. نايبه في السفر، دبيب أقدامهم إزاءه، اشتد خوف
أبي بكر ... لا على نفسه ولكن على رسول الله ... حتى
بكى ... فقال يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه
ألبصنا ...! فهدأ رسول الله من روع أبي بكر وقال له:
لا تحزن إن الله معنا ... ما ظنك في اثنين الله ثالثهما(١) ...

ونزلت الآية تفصل هذه المحاررة اللطيفة في قوله تعالى:
لا تنصرف فإن نصره الله إذ أخره الذين كفروا ثانياً ثانياً إذ هما
في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته
عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة

البقين الذي تمكن من قلبه الكبير، وإيمانه بالعصمة دعاء لقوله لصاحبه
لا تحزن إن الله معنا ومعية الله كانت الحجاب للكفار الذين وصلوا إلى
الغار وهي معية الحفظ والطمأنينة. والله يرى ولا يرى ومعية الله
لمحمد حجب الكفار عن رؤيته.

١٣٩

http://kotob.has.it
ووهذا كله ليدل على عمق اليقين لدى رسول الله، وهل من المكان السليم أن يختلق الإنسان فكرة، ثم يصرح بها لحماية نفسه، ويصدر الآيات بالعاصمة لذاته. وأيمن الله لو كان محمد مختصراً ذلك لشد الحماية على نفسه، ولطلب من أتباعه تآيات كثيرة أن يدافعوا عنه أكثر من دفاعهم عن عقيدتهم، بل ثبت أن القرآن صرح بأن محمدًا ما هو إلا رسول فإن مات أو قتل فإن الله حبيباً وأن الإنسان يستطيع تنظيم ذاته ثم يهون من أمر نفسه، ولا تهمه حياته، بل يأمر الناس بأن يتركوا حراسه، وهذا عكس ما نشاهده من المصلحين أصحاب العقائد الوضعيّة، فهم يحاولون الإكثار من الحراس حفاظاً على حياتهم وأنفسهم...

ومن حوادث العصمة هذه الحادثة التي يرويها الثقات وهي أن أبا جهل وهو من أشد شكوى رسول الله قال: يا معشر قريش إن محمدًا قد أبع ما ترون من عبيده ديننا، وشتم آبائنا، وتسفه أحلامنا، وسب الله، وإن أعاهد الله لاجلسن له غداً بحجر ما أطبق حمله، فإذا سجد في صلاته فضحكت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو أمنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدأ لهم !!! قالوا: والله لا نسلمك لشيء، إلا أبداً، فامض لما تريد. فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله
ينتظره، وغدا محمد كما كان يغدو كل يوم، فكان إذا صلى، صلى بين الركن اليمني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وقام محمد لصلاةه، وقد غدت قريش، فجلسوا في أندتهم، ينتظرن ما أبو جهل فاعل، فلما سجد الرسول عليه الصلاة والسلام، احتفل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه، رجع متهماً منتقعاً لونه، مرعباً قد يسبت يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه، عرض لي دHONE فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (القصرة أصل العنق يعني بذلك ضخامة رقبته وطولها) ولا أنجابه لفحل قط، فهم بي يريد أن يأكلني...!!

فقال ابن ساحر: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه).

وأيما الله هذا دليل آخر من أشد رجل حاقد على دعوة محمد، دليل من أنصع الدلائل على أن الحق الذي جاء به محمد ليس من عنده، وإنما هناك يد خارجية، وقوة إلهية فوق قوته تدافع عنه، وتحميها، وإن تكسر هذه الحادثة الموثوقة، التي جرت في ربيع قريش، وصار بعد ذلك أبو جهل مهان المكانة، ضعيف

141
القيمة، واتهم بالجبن والتردد، وولو قيل إن هذا ليس صحيحاً فمن
منعه من ضرب محمد ..؟ أما كان أشد الحاقدين عليه حتى إنه
قال: لقد سقت بغضباً لابن عبد المطلب لو سلط البحر عليه
ما أطفأها .. من منعه إذن من قتل رسول الله .. إن لم تكن
العصمة ... فليجب المكابر الذي لا يرضى بهذه الحادثة .. إن
كان لديه جواب مقنع .

ومن محاولات اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما حاكم
اليهود ضده في المدينة من مؤامرات للتخلص منه من أجل
مصالحهم وزعامتهم ، وما يروى ( أن رسول الله خرج إلى بني
النضر يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر .. النجار
والذي كان رسول الله قد عقده لهما وكان بين بني النضر وبني عامر
عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله يستعين في دية ذينك القتيلين ،
قالوا: نعم يا أبا القاسم . تعينك على ما أحبت مما استعنت بنا
عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل
على مثل حاله هذه .. ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد ..
فمن رجل يعلم على هذا البيت فيلقفي عليه صخرة فيريحنا منه ،
فانتدب لذلك عمرو بن جماش - أحدهم - فقال: أنا لذلك ،
فصعد ليلقفي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله في نفر من أصحابه
فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فجاء الخبر من السماء بما
تبر القوم ، فقام وخرج إلى المدينة .. فلما استلبيب النبي أصحابه ،

142
قاموا في طلبه ، فلقبوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ،
قالا : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحاب الرجل عنده ، حتى انتهوا
إليه ، فأخذهم بما أرادت اليهود من الغدر به ، فأمر بالتهيؤ
لحربهم والسير إليهم .

وهكذا هم اليهود بالجريمة المنكرة دون أن يظهروا له شيئاً ،
وكل ذلك أثناء محادثته لهم ولكن العصمة ... العصمة ﷺ والله
يعصمه من الناس ﷺ . وإن هذا الإنسان الذي لم يأت بخير من
وجدانه ولا بإصلاح فرد ولا إذاء مرسالاً بعقيدة شاملة يحمل في
طياتها وعد بحمايته وقد تم له ذلك ، ولو كانت فردية بشرية لما
استطاعت حمايته .

وهذه المحاولة الأخيرة التي تمت في معركة أحد ، ها هوذا
يقاتل أقرب الناس إلى العدو والموت قريب من الجميع ،
وما جرت هذه المعركة إلا للخلاص من محمد ، وكان علي رضي
الله عنه يقول : كنا إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله ﷺ ، فما يكون
أحد أقرب إلى العدو منه . إن هذا هو اليقين لأنه واثق بأن العصمة
 والاستياء أنت من خلق الموت والحياة ممن بيده مقاليد الكون ...

وها هو في غزوة حنين ، يركض ببلغته إلى جهة العدو ﷺ ، فلما
أقبل المشركون وأحاطوا به لم يهزم بل نزل عن بلغته وأخذ يقاتل
وكأنه يعرض نفسه لنبلائهم وأخذ يصبح : أنا النبي لا كذب أنا ابن
عبد المطلب . (حديث رواه الشيخان).

فالوا من حياة ملؤها المخاطر، ولكن وصل إلى شاطئ السلام، وحقق الله له وعده وعصمه حتى يبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، وينطق كلمة الكمال.

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت

لكم الإسلام ديناً.

وأعلن للبشرية بأن الإسلام هو الدين الحق وخاتمة الشرائع...

ولا يأس أن نختتم هذا الفصل بهذه الحادثة الرائعة وهي أنه بعد وفاة عمه أبي طالب دخل إلى البيت الحرام فنثر بعض القرشيين التراب على رأسه، ومن ثم دخل الرسول بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل التراب وهي تبكي!!.. فقال لها: يا بنتي لا تبكي، فإن الله مانع أباك... واعمه الله ما يقول هذه الكلمة إلا نبي مرسلاً، وسع التاريخ نفسها الكبيرة قبل أن يوجد التاريخ في الدنيا، فكلمه في الإيمان والثقة لأنه يتكلم عن يقين.

فما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

144

http://kotob.has.it
الدليل السادس
المغيبات والرسول

إن القارئ المنحص للحقيقة في القرآن، يلمع أخبارا تاريخية قديمة وحديثة، وقد ظهرت تلك الأنباء بشكل واضح جلي مفصل، ونظرت خاطفة لمجموعة هذه الأخبار الماضية، ترى واقعيتها، وكأنها مشاهدة. علمًا بأن التاريخ لم يكن واضحًا معلومًا، فهل كان محمد آنذاك بحيث يرى المعطيات التاريخية رأي العين ليصفها كما شاهدها، أو كانت لديه الآثار الكافية ليصف تلك الحوادث، أو هو تصور شاعر ذي خيال خصب، أو وثت كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها!!

فلا نقول: إن معرفة بعض أسماء الأنبياء، والأمم الماضية، ومعرفة مجمل ما جرى من حوادث على أقوام عاد وثمود، هو العجيب أن يعرف هذا الرجل العربي الأصيل، بل كان هذا معروفاً عند البدو والحضر، ولكننا ننظر إلى هذه التفاصيل الدقيقة، والكنوز الدقيقة في بطول الكتب، وذلك هو العلم النفيض الذي لم تنله يد الأميين العرب، وما محمد إلا رجل منهم، فاقرأ ما كتب

١٤٥
في التوراة والإنجيل عن أهل الكهف ومدة نومهم تجد: أنهم لبثوا
في كهفهم ثلاثمائة سنة، وازدادوا تسعًا، وهذه السنون السبع هي
فرق السنين الشمسية والقمرية، فانظر إلى هذا الحساب الدقيق عن
رجل أمي لا يكتب ولا يحسب فأنى له ذلك؟

نعم إنها لعجيبة حقاً! رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر
 مجالسهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معينتهم مشغولًا
 برزق نفسه وزوجه ودينه، راعياً بالأجر، أو تاجراً بالأجر لا صلة
 له بالعلم، ولا بالعلماء يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين
 سنة من عمره، ثم يطلع علينا بين عشيته وضحاها، فيكلم الناس
 بما لا عهد لهم به، في سالف حياته وما لم يحدث به أحداً قبل
 ذلك .. ويبدي لنا من أخبار تلك القرى الأولى ما أخفاه أهل
 العلم في دفاترهم .. ولو كان يدرس متدرجاً منذ يفاعة سنله لظهر
 هذا في سمات واضحة عبر مقدماته حياته، وعرف في هذا بين
 عشيرته التي ترتقي كل جيد وترمي بعيونها كل غاد ورائع، وترمق
 ببصرها كل حركة ولقاء وبحث ..

فهل لعاقل منصف أن يقر بصدور هذه المجموعة من الأخبار
 من رجل عاش طيلة حياته في مكة بين وديانها راعياً، وفي أميته
 ثاويًا، ولا يعرف عن الأمم السالفة إلا ما يعرفه أقرانه من
 الأميين .. ولا شك أن مجموعة هذه الأخبار قد جاءت من مصدر

١٤٦
غير ذاته ومن دائرة معازف، دقيقة في تمحيصها، لديها الامكانات الكثيرة، وذلك في عصر لا قيمة للتاريخ فيه...
ولا يمكن لفرد أن يصل بجهوده الفردية وفكره المتوضب إلى النتيجة التي وصل إليها رسول الله . ونحن الآن نشاهد البعثات تلو البعثات تذهب للتحري عن موضوع تاريخ أو حجر أثر فلا تصل إليه إلا بعد جهد جهيد وامكانات ضخمة، وقدرات عالمية .
ولا شك أن الجاهلين الذين عارضوا محمدًا في بداية دعوته، وعلموا هذه الظاهرة العجيبة بفهم رائع، ومنطق أسلم من تعليل الكثير من المتثفين الملحدين في عصرنا الحاضر ...
فقالوا: إنما هي دروس أمليت عليه، وأكب على فهمها فعلم منها ما لم يعلمه . ولذا جاء القرآن واصفاً جحتمهم:
\[1\) وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست\]
ووصفوا هذه الأنباء حسب ما يمله حقدهم بأنها أساطير الأولى وقد وصف القرآن قولهم.
\[2\] وقالوا أساطير الأولى اكتتبها فيه تملى عليه بكرة وأصيلًا،
فأجابهم الرسول على لسان القرآن .

147

(1) الأثنام / 105 .

http://kotob.has.it
قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفراً رحيماً.
وذلك بقوله:
فألا يت ذلك القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا [النساء : 80].
وذلك بقوله:
وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطها بيمينك إذا لارتاب المبطلون [العنكبوت : 47].
وقل لهم يا محمد:
فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تطلعون [المدثر : 25].
ولقد صدق كفار قريش من حيث لا يشعرون بقولهم إنه درسها . . نعم لقد درسها على جبريل واكتسبها من صحف مكرمة، مرفوعة مظهرة بأيدي سفيرة كرام بررة، وبهذا علمه القرآن وأمره بإخبارهم عن الحقيقة، وإنما هو بشر لا يعلم شيئاً عن الشريعة قبل الوحي ولا يعرف الحوادث بهذا التفصيل: وقال لهم:
قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكما به فقد لبثت فيكم 148
عمراً من قبله إذا تعقلون» [يونس : ۱۰۱].

إذن: كل هذه الأخبار القديمة ما هي إلا منقوله ولا سبيل للشخصية المحمدية في اختلافها وأنى لمحمد هذا النقل الدقيق؟! علمًا بأن المكتبات لم تكن موجودة ... وما دونت هذه الأخبار ... وقد بحثنا بشكل مفصل عدم وجود معلم لرسول الله سوى الوحي ... فلا شك بأنه المصدر الوحيد لمجموعة هذه الأخبار وفي هذه الآيات توكيد على مشاركة الوحي في نقل هذه الأخبار الماضية إليه:

» تلك من أنباء الغيب نوحياً إليها إليك ما كنت تعلمها أنت
ولا قومك من قبل » [هود : ۲۹].

نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله فمن الغافلين» [يوسف : ۲].

» وما كنت لديهم إذ يلقون أقلاهمهم أيهم يكفل مريم (۱).

» وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمرون (۲).

» وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر (۳).

______________________________

(۱) آل عمران/۴۴.
(۲) يوسف/۱۰۲.
(۳) القصص/۴۴.

١۴۹
هذه أخبار قد جاءت عن أمم مضيئه، والعجب الأكبر هو الإخبار عما سيحصل في المستقبل وهل يعقل من رجل يحترم نفسه أن يتكلم عن المغيبات، ومن ثم يطلب من الناس أن يصدقوه ولا يخشي أن يخيب الغيب ظنه ويتركه في كذبه، وتنقلب عليه الظروف، وهل يتمرأ ذو العقل أن يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف عن ضرئها بضع خطوات من مجرد الحوادث المقبلة، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر بالقائها (لذك ما تقتضي به طبيعة الحوادث لسوارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان). أما أن يبت الحكم بما وحده تحدثاً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأماهات العادية فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجليين: إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول للناس كلاماً فيه صدق أو كذب، ذلك هو دأب جهلاء المتبنين من العرافين والمنجنيين، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وتلك هي سنة الأنبياء والرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجل يروي أخباره عن واحد منهما. فاي الرجل تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام وما سيكون خالداً أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم العرافة والتنجيم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم، ولا كانت أخباره كأخبارهم.
خليطاً من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ ، بل كان مع براءته من علم الغيب وعقوله عن طلبه وتكفنه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحوال المتاطولة أن تنقص حرفاً واحداً مما ينبي به .

وإن كتاب عزيز لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [فصلت : 41] .

ولنسرد لك هنا بعض النيوائات القرآنية من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية ...

1 - ما جاء في سورة الروم

 آلم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم مغلبون في بضع سنين ...

الحادثة : جرى جدال بين المسلمين والمشركين في مكة قبل الهجرة ، فقال القرشيون سنغلبكم كما غلبت فارس الروم ، وآرادوا بذلك إيطال زعم المسلمين بالغلبة على كفار قريش بكتاب الله الذي أنزل عليهم . . وأجروا القياس قائلين : إننا لذرى الفرس وهم مجوس قد غلبت الروم وهم أهل كتاب ... فنزلت الآية لترد على قريش :

آلم غلبت الروم ...

ولقد جاءت الأخبار لتعلمنا بأن النصر كائن لا محالة ، وقد
حدث في وقت بعيد عن متناول الظنون، وذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف جداً يكفي من دلائلها أنها غزيت في عصر دارها، وهزمت في بلادها وكما جاء في القرآن في أدنى الأرض، فلم يكن أحد يظن أنها ستقوم لها بعد ذلك قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر، ولذا كذب به المشركون، اعتقاداً منهم على قريبة الحال، والحاضر الممزق لواقع الروم، وهذا جعل الكريشيين يتظادون المسلمين فتراهونا على تكذيب القرآن. وإذا بالقرآن يؤكد هذا الوعد ويعزز هذه الأخبار بالغيب بقوله:

"ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله".

إشارة إلى أن اليوم الذي سيكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيعق فيه هنا نصر للمسلمين على المشركين، وإذا كان كل واحد من النصر في حد ذاته مستبداً عن الناس أشد الاستعداد، فكيف الظن بوقوعهما مقتربين في يوم واحد..؟ ولذلك أكره مرة ثالثة أعظم التأكيد بقوله:

"وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

ولقد صدق الله وعده، فتمت للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤرخين في أقل من سبع سنين وإن عدم تعيين يوم النصر بالذات

152
في القرآن مع القدرة عليه، لاختلاف الحساب بين الأقوام المتعددة، فمنهم من يحسب حسب التقويم الشمسي، ومنهم من يحسب حسب التقويم القمري ولذا تركها أقوى للحجة، وكان يوم نصر الروم هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى (1).

٢ - ومن الأخبار الغريبة المتوقعة في القرآن، التي أخبر بها قبل وقوعها ثم حدثت بعد ذلك هذه الآية:

» سيهزم الجمع ويقولون الدبر (القرآن: ٤٥). «

لقد نزلت هذه الآية فتداولها المسلمون بينهم وهم مضطهدون في مكة، وقويش تصول وتجول، ولم يفهموا الصحابة حتى إن عمر رضا الله عنه لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا؟ قال فلما كان يوم بدر، رأيت رسول الله ﷺ يقولها فعرفت ذلك. 

علماً بأن الآية نزلت والضعف يخيم على المسلمين في مكة، ولا مجال للحرب ولا لالتقاء الجمع، فأنا لمحمد أن بشر من خلطات نفسه بهذه البشري، وهو لا يدري ماذا سيعالله بعد ساعات؟ ثم أرى لعاقل أن يبشر قومه دون مشاهدة مقدمات دالة على صدق هذه البشائر. إنه تنزل العليم الخبير...

(1) كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه الطبراني عن ابن عباس.
ولا بأس أن تأتي بأخبار فردية، وذلك في قوله تعالى:

«سنسمه على الخرطوم».

ونزلت هذه الآية بحق الوليل بن المغيرة وهو من أشراف مكة، لأنه حاول إصدار التهم والكيد فهدد بهذا، وقد جاءت الأخبار الصادقة، أنه أصيب بالسيف في أنفه يوم بدر، وكانت ذلك علامة له يعير بها ما عاش. كل هذه كانت غيبيات قرآنية، ليس لمحمد فيها شيء بل كان يؤكد دائماً ما قاله تعالى بحقه: «قل لا أقول لكم عئيد خزائن الله ولا أعلم الغيب»، ولا أقول لكم إني ملك إن آتي إلا ما يوحى إلي، قال هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون؟»

[الأنعام: 51].

3. وهذا شاهد رائع وهو وصف غيبي لا دخل للشخصية المحمدية فيه، وهو عندما أتى للعمرة وردَّ في سنته وجرى صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين ووعد الله المسلمين وعدًا قاطعًا... فهل يا ترى أخليك الله المؤمنين ما وعدهم عام الحديبية في دخول المسجد الحرام وتبديلهم الأمن بعد خوفهم، وتحقيق رؤوسهم وتقصيرها قضاء للشيعة، كما قال تعالى:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام وإن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون»

الفتح: 22].

١٥٤
وبالفعل تحقق ذلك كله ... وأني لبشر أن يلقي هذه الضمانات ويطلقها جزافاً، إنه الوعي الصادق الذي تتكشف له حجاب الغيب فيعلنها صريحة ... !!

4 - ومنذ ذكرنا وهو من أعجب العجب، أن يضمن الله لنبيه حماية شخصه وعصمه من أذى الناس مع أن الراغبين في قتله كانوا يحيطون به من كل جانب؛ وقد بحثنا هذا الموضوع بشكل خاص في قوله :

» يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإذا تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمه من الناس » ...

5 - ولما اشتد الخصام بين النبي ﷺ وأهل مكة، دعا عليهم بسنين كسنٍ يوسف: فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء.

» فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشي الناس، هذا عذاب أليم »(1).

فماذا جرى بعد ذلك؟ ... لقد أصابهم القحط حتى أكلوا العظام، وصار الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد(2) ثم تتابعت الآيات.

(1) سورة 44 الآية 10.
(2) رواه البخاري عن ابن مسعود.

155
إنا كناشفو العذاب قليلاً، إنكم عائدون، يوم نبتش البطشة الكبري إننا منتقمون.

فالمتتبع للتاريخ مكة في تلك الظروف يرى تحقق هذه النبوءات الثلاث وهي: كشف البوس عنهم، ثم عودتهم إلى مكرهم السيِّئِي؛ ثم الانتقام منهم بعد ذلك، وقد كان ذلك كله كما جاء في الرواية الصحيحة للحديث المذكور لهذا الأمر... فإن قريشاً قد جاءت إلى رسول الله تستسقي وتنضّر إلى الله.

ربنا اكشف عننا العذاب إننا مؤمنون.

فهل يستطيع رسول الله أن يصرف في الطبيعة ويسيرها كما يشاء ويأتيهم بكل ذلك واضحًا جليًا ليهددهم. ألم يعقل أنه إن لم يتحقق ذلك كان فيه انحطاط للرسالة التي جاء بها، ولكنها ثقة بالمصرف لهذا الكون إله الوحي. ونزلت بعد ذلك آيات فيما الوعد للرسول وبيان نهاية اليهود في المدينة، ويتضمن القارئ لها القدرة على التحقق، وصدق الوعد، وعمق النظر. انظر كيف يقول الله تعالى:

لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلكم بولوكم الأدبائر ثم لا ننصرون [آل عمران: 111].

وقد جرى ذلك في الغزوات المتعددة ولولا الأدبائر ولم ينصروا في معاركهم كلها، فهزموا في معركة بني قريظة ومعركة بني...
النصير .. وبني قنساع .. ثم يقول أيضاً في حقهم:

"ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس".

6 - انظر إلى هذه الآيات التي نزلت في أوقات عصيبة، والكفر يصول ويجول والحق مهدد وإذا بالقرآن يبتنههم بما سيكون لهم من الخلافة والملك، علاوة على الأمن والاطمئنان فما هذا؟.. أحلامهم .. وأمانى .. لا بل نشاهد وعدها مؤكداً بالقسم.

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم، وليمكن لهم دينهم الذي ارثى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم آمناً" [سورة النور: 55].

ومما رواه الحاكم وصحح عن أبي بن كعب قال: لما قام رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهما الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يرون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا: أثرون أنا نعيش حتى نبتين أميين مظلمين لا نخاف إلا الله، فنزلت الآية "وعد الله .. وعبد الله .. وقيل إنها نزلت ( الآية) ونحن ( أي الصحابة ) في خوف شديد ..

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله ( منكم ) فبدلوا من

١٥٧
بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه واستخلفوا في أقطار الأرض قوتروا مشارقاً ومغارباً.
وتأمل قوله في هذه الآية: «و عملوا الصالحات» ثم انظر إلى معناها في الآية الأخرى التي توضح معنى الصالحات:
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» (1).

فنجد في هذه الآيات قوانين عامة اجتماعية تقرر وتبين سر ما يتبنى به المؤمنون أحياناً من انتقاص أرضهم، وتسلط الأعداء عليهم، وذلك ضمن قانون إلهي مبدع ...
فأو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم» (آل عمران : 165).

إنه القانون الإلهي في الحياة الاجتماعية وهو قانون غيبي قد أدركته الأمم في عصرنا ولا يمكن لأمي من أمة جاهل أن يكشف المغيبات، ولكنه وحي السماء الذي بيتله قوله تعالى:
فذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الأنفال : 53).

(1) الحج/40.

108
وبعد أن ناقشنا المغيبات في كتاب الله علينا أن نتحرى المغيبات في الأحاديث وله أن السول لا يمكنه معرفة الغيب إلا بأمر الله عز وجل وكان يرد:
قول إنا أنا بشر ملككم يوحى إني إلهكم إله واحد
[الكهف : 40] .
وذلك لو كنت أعلم الغيب لاستكره من الخير . . .

وقد أطلعه الله على بعض المغيبات منها:

1 - بشر الصحابة بأنهم سيحتون بلاد الشام والعراق ومصر وبلاد فارس والتاريخ أثبت ذلك ، وقال الرسول في هذا : إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سببعل ملكها ما زوى لي فيها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإنى سأـت ربي لا أمتى أن لا يهلكها بسنته عامة .

2 - لقد بشر الرسول سراقة بن مالك بارتداء لباس كسري وسواره حين تابعه أثناء الهجرة ولم يستطع اللحاق به . . . وأخبر الرسول بأن قومه قد جعلوا فيه الدينية ؛ وأعلمه عن كل ما يحاك حوله وطلب منه وثيقة أمان فبشره عند ذلك وأعطاه وثيقة الأمان ، وتحقت البشرة وليس رداة كسري في زمان عمر الفاروق.

3 - ومن المغيبات التي تحدث عنها الرسول ووقعت ما رواه عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أهان رجل فشكا

159
إلى الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكنا إليه قطع السبيل فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت لم أرها وقد أثبتت عنها. فقال إن طالت بك حياة لترين الطلعية ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكمية لا تخاف أحداً إلا الله ، قلت في نفسي فإني ديار طبيب الذين سعوا في البلاد؟ ولكن طالت بك حياة لتتخلن كنز كسرى.

قلت : كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز !! .

قال عدي: رأيت الطلعية ترحل من الحيرة حتى تطوف البيت.

لا تخاف إلا الله وكنت ممن أفتح كنز كسرى بن هرمز ...

يا للعجب .. كيف يتحقق ذلك؟ وإن هذا الخبر .. إما أن يكون رؤيا وإما أن يكون راوية إنسان غير عادي .. وأما بالنسبة لصحة الخبر .. فهو صحيح موثوق لأن رواته من أصدق الرواة ولا يمكن أن نشك في رواية البخاري ، وإذا أراد الإنسان أن يكابر في الحق فلا تاريخ موثوق بعد البخاري وروايته .. وإذا وصلنا إلى صدق رواية البخاري .. فلا يمكن أن يتحقق ذلك إلا لرسول .. يوحي إليه ...

٤ - إن التنبؤات التي أخبر بها الرسول عن العصور القادمة لواقع المسلمين لثبت صدق نبوته ، فحديته عن واقع المسلمين

(١) رواه البخاري ٦/٤٧٧ /٤٧٩ /٤٧٩ .

١٦٩
المتخلف وتمزقهم يبين ذلك بقوله: يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلاة على قصعتها، قالوا: أعن قلة نحن يومذ يا رسول الله، قال: لا بل كثير ولكنكم غتاء كثائرة السيل وصبيكم الوهن قالوا: وما الوهن يا رسول الله، قال: حب الدنيا وكراهية الموت. وهذا ما شاهدنا في نهاية العصر العباسي وهجوم المغول والتر، وانقضاض الصليبيين على الربيع العربية والإسلامية وما نراه الآن في العقود الأولى للقرن العشرين من تكالب الاستعمار على البلاد العربية والإسلامية وقد جاء هذا شاهداً أخيراً على صدق نبوة محمد وأنه ليصف لنا واقعنا وكيف الخروج منه ويرشداً للدواء الناجع لاستعادة قوتنا ونهضتنا.

5 - ويرى أنه جاءه شخص يدعى الجارود من وفد عبد العيس فقال له: إن كنت نبأ فاخبرني عما أضمرت، قيل إن الرسول خفق خفقة كما لو كانت سنة من النوم الخاطف، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه، وهذه صفته عندما كان ينزل عليه الوحي، ثم أجابه بما أضمر قائلاً: إنك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهلية وعن حلف الجاهلية وعن المنية، ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحرفها مردود ولا حلف في الإسلام ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة...

6 - وفي أحد الأيام كان رسول الله ﷺ جالساً مع نسائه فإذا به...
يتغير لونه ولبث فترة ثم قال كلاهماً خفياً فيهم شيء من الحيوان والمرارة، ولا يحب أن يصرح بكل ما علم: فقال كأنه بإحداكم قد نبختها كلاي الحوأب ثم أشار إلى عائشة واستطرد قائلًا: إياك أن تكونيها أنت يا حميرة...
ولا شك أنه استكشف الغيب بشكل واضح وجلي، ولكنه أشار إلى عائشة رضي الله عنها بأسلوب أبي، وهذا لا يصدر إلا من نفس عالية...
وفي الحقيقة بعد وفاة الرسول عُلِّم بسنوات عديدة، وفي خلافة علي بن أبي طالب خرجت عائشة تعارضه ونفرت من مكة إلى البصرة، وفي طريقها عند مكان يسمى (الحوأب) نبخت الكلاب عند مرور القافلة فتطيرت عائشة وقالت: أين نحن؟ فرد عليها محمد بن طلحة: عند ماء الحوأب. فصرخت وقالت: ماء الحوأب إنا لله وإنا إليه راجعون ردوني ردوني. فقد تذكرت تلك الإشارة التي أشار لها النبي حين كان حياً وفهمت تفسيرها الآن وأرادت الانصياع لأمره ونبدت على فعلتها وتصورته واقفاً أمامها يقول لها: إياك أن تكونيها أيتها الحميرة. فضربت بعيدها في اتجاه مكة وهي تصرخ: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب...
خـ: وقد قص الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أمثلة كثيرة لإخبار الرسول عن المغيبات قال: وأذكر عثمان بأن...
نصبه بلوى بعدها الجنة، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين وأخبر عليه الصلاة والسلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه...

وأخير بمقتل الأسود العنيف الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمين وأخبر بمن قلته. وقال الرسول ﷺ زاجراً الأمة، مبناً للفرقة التي ستحصل. لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بغضكم رقاب بعض... 

وبعد كل هذه المغيبات نرى أنها تحققت جميعاً، وأظهر الله دينه وأيقن الجميع بصدق نبوة الرسول. وقال تعالى:

» هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون [التوبة: 123].

وبين الله تعالى صورة الكفر التي تجمعها ضد الباطل في قوله تعالى:

» يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وقد أتم الله نوره وكملت الشريعة التي ارتفها الله لعباده...

فانظر إلى عجيب شأن هذه النبؤات كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتاً وبأيدياً.

١٦٣
وكيف يكون الدهر مصدقًا لها طال أو قصر وفيا قرب وبعد ..؟
بل أنظر إلى مجمل ما في القرآن من الأخبار ترى فيها من الحوادث التي تناولت الماضي السحيق، والمستقبل الغامض ما يكشف لنا كونها فوق حس النبي وعقله، وهي أنباء ما كان وما سيكون، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ؛ وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام، وكلما حدثنا عن الله وسلاحه وشؤون الغيب صدقته العقول السليمة وأتأي البرهان ساطعاً بيتاً ..!!
ثم أسأل نفسك السؤال الأخير .. أيعقل من رجل أمي أن يأتي بهذا الحديث كله من بنات أفكاره؟ .. والجواب البدهي: أنه لا شك قد استقاه من مصدر علمي وثيق واعتمد فيه على اطلاع واسع ودرس دقيق، ولا يمكن أن تكون هذه الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته .. وإلا أين أمثال هذا العبقري الذكي الذي أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدم وأنباء المستقبل مهما بعد ..
وإلاً كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (1) .
إنه النبي وليس العبقري، إنه المرسل وليس ك碧桂园 المصلحين

(*) الأعماق/67.

164
 وما عبقريته إلا ومضة من قبس النبوة ، وما إصلاحه في المجتمع الذي عاش فيه إلا بانعكاس ظلال هدى الشريعة السمحة التي جاء بها هادياً وبشراً ونذيراً . .

١٦٥
الدليل السابع
التنسيق الفكري في القرآن

بعد أن عرفنا الشيء الكثير عن القرآن، علينا الآن أن نغوص في أعماقه، ونتحرى ذاتيته، لنقف على موضوعاته المتعددة، وفكره الإنساني الشامخ وتكامل بناء لبناته التي تم تجمعها في بضع وعشرين سنة، فكأنه منجماً لم يغض من كماله، فالمتصفح له كله لن يرى آية أدخلت الضيم على أختها، ولا يلمح سورة تنكرت وخلافت أخرى ولا يشاهد واحدة أتت بفكرة مغايرة لما سبقتها بل ترى التناسق والتكامل والترادف لتحقيق الغاية الكلية وهو الكمال الذي نطق به في آخر آية نزلت:

في اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتم
لكم الإسلام ديناً.

لا جرم أن القرآن هو النمط الوحيد في القوة والإبداع، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بпровاجه، ولا يعثر الفارابي الباحث على اختلاف في جزئياته ولا في كلياته، فكيف تحفظت فكرة التناسق بين آيات القرآن المتعددة المعنى المتباني الظروف، المختلفة الأغراض علماً بأن الشعراء في العصر الجاهلي لم يعودوا

166
في قصائدهم الالتزام المستمر للفكرة المتناسقة، حتى إن بعضهم كان يضع في كل بيت معنى مستقلًا عما قبله وعما بعده... والمتحري للتراث الثقافي الإنساني يصل إلى الإقرار بأنه ما وجد كتاب في هذا التناسق والتكامل في مواضيعه المتعددة، وغايته السامية، وتشريعاته المبنية على الفطرة الإنسانية، وقد تم ذلك كله على الرغم من بعد الشقة، بين نزول أوله وآخره، والظروف التي مرت بينهما وإذا ما تجريت أديباً ودرست فترة خمس وعشرين سنة من حيعله فستجد بعد الشقة بين الحالات حتى لتخال أن الأديب في بداية الفترة غيره في نهايتها؟ وسوف تجد أن ما كتبه في بداية حياته قد تركه ونقده في نهايتها ... وربما قبل إن الآيات الناسخة والمنسوخة من هذا القبيل والرد على ذلك سهل لكون الآيات الناسخة والمنسوخة ما هي إلا آيات تتوخى التدرج في فهم الأحكام وتطبيقها، فبعد أن يتحقق تطبيق الأحكام في الفترة الأولى تنزل الآيات الناسخة لإتمام الشريعة وكمالها، وهكذا. وعلى سبيل المثال حد الآيات التي تم فيها تحريم الخمر ... فترى كيف توتالت التدرج في الوصول إلى الحكم الشرعي النهائي، وبعد هذه اللمسة الخاطئة علينا أن نبين صورة بسيطة عن التناسق بين الجزئيات والكليات في القرآن.

ومن الأمور الكلية النظرية الموحدة عن الله والكون والإنسان، فالمتطلع إلى خفايا الأغراض في الآيات، يلمع نظرة واحدة

١٦٧
لا ثانية لها وعلى سبيل المثال:

النظرية الكونية: فلنقرأ هذه الآيات المتناثرة في كتاب الله:

» وسخر لكم الشمس والقمر دافعين Forced
» ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينبع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصرفًا ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب [الزمر: 20].

واية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قد نزى منازل
حتى عاد كالجرحون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبعون [1).

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل
لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل
الآيات لقوم يعلمون [يوس: 6].

هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون يبت كله الزروع والزيتون والخيل والأغنام ومن كل
الثمرات إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون [النحل: 11].

ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أتم بشر تنشرون،

(1) يس 38/9/20/41.

168
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتشكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السماوات وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين، ومن آياته مناكم بالليل والنهار واختلافكم من فصله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمهاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك آيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أتم تخرجون وله من في السماوات والأرض كل له قانون» [الروم: 20-27].

«الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفها وضع الميزان ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» [الرحمن: 3-7].

«وكل شيء عنده بمقدار» [الرعد: 8].

أما شاهدت في مجموعة هذه الآيات وحدة في الموضوع وانطلاقاً لفكرة واحدة غايتها صلة السبب بالسبب والرجوع بالمخلوق إلى الخالق وكل هذا في كشف دقيق لقانون الكون المتناسق والمقدر والموزون وهذا المعنى يتجلى في هذه الآية: «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» [الفتح: 72].
ولذا ترى غرضاً واحداً لمجموع الآيات الكونية رغم تباينها واختلاف مواضيعها بل تجد لهذه الآيات غرضاً خاصاً وهو معرفة نظام الكون وغرضاً عاماً شاملاً تحويه جميع الآيات وهو الإشارة إلى قدرة الله المطلقة والموجدة والمقدرة في هذا الكون، وهو كله يظهر في فكرة الوحدانية التي ترفع الإنسان إلى أعلى مستوى الإنسانية دون العكون على صمم ولا اهتمام بشمس ولا قمر لذاته، وهكذا يرى القارئ الكزن الدين تحت الجمال اللغوي، والسر المصون خلف المعاني الواضحة الجلية، وقد جمع بقصد في اللظف مع الوقار الكامل بحق المعنى، وهذا نادر الحصول وغاية دونها الإعجاز في تحقيقها، وبعد ذلك ترى خلف هذا التناسق إقناعاً للعقل البشري وقناعاً للعاطفة الإنسانية، لأن الإنسان في حد ذاته يملك قوتين: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أخرى، وأما إحداهما فهي اختيقت عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فهي إحساساً بما في الأشياء من لذة وألم؟ والمعنى المحقق لغرسه هو الذي يوفي للفقار هاتين الحاجتين، وهذا ما يجهد القارئ في كتاب الله، المبين لحقيقة الكون الناطق بالحق، أما وجدوا ما فيه من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما في السماء من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب، إن الثبات والكمال والجمال، والكمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق البديع لهذا الكون المتكامل ولذا نرى
مجموعة هذه الآيات تحقق معنى:

«تصير به ذكرى لكل عبد منيب».

نعم إنها تصير تكشف الحجاب وتير البصرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب تنفع كل عبد عاقل حكيم.

وهذه الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل المرتب، تجعل للنظر في كتاب الكون ومعرفته إليه أثراً في القلب. ولذا أعاد، وكرر، وسط ووضع في كثير من هذه الآيات ليركز عقيدة الإنسان بالعين المجردة لتلتح عظمة الله في مخلوقاته.

فالقرآن بناء متماسك قد بني على مقاصد كلية وأقام لكل مقصد دليلًا، و لكل فصل برهاناً، وتناسق القرآن تناسق الحجارة في البنيان، بل إنه التحيم كما تتلمح الأعضاء في جسم الإنسان. أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضيء ولا ينسى ولا يتردد، لقد أعد لهذه الآيات المبهرة نظامها الكلي ونقضها في إبان نشأتها إلى ما قدر لها، حتى صياغت في ذلك العقد العظيم، ولا بأس أن نرى تناسق القرآن في النظره للإنسان:

«ولقد كرمنا بني آدم.»

«إني جاعل في الأرض خليفة.»

«وسركم ما في السماوات والأرض.»

171
َهو الذي جعل لكم السمع والأبصر والأفثة قليلاً
ما تشكرونِ.

َالرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيانِ.


وإذا أردنا جمع الآيات التي تبحث عن الإنسان لضاق بنا المجال واحتجنا إلى مؤلف بذاته، وإذا ربطنا الأجزاء المتائرة التي تبحث عن الإنسان وماهيةه ومصيره ونفسيته وشعوره، لوحننا بحثاً متسقاً متكاملاً، لم يترك شيئاً من ذاتية الإنسان ولا من أحواله النفسية والخارجية، وإن الأفكار المتائرة في القرآن لتشير للعيان؛ فالآمور التي تبحث عنها كثيرة; كارتباط الحوادث في الكون بعضها بعض ارتباطاً مطرداً، وما يوحي من نظريات الفكرة السببية فجعل من الكون والإنسان، مجالاً للبحث، وإشرافاً للروح، وإنشاها للحواس التي هي نواخذ الفكر البشري للمعرفة الإنسانية. ومن أروع ما ظهر فيه التناسق في القرآن ذلك التعاضد والتوافق بين الروح والجسد فليس في القرآن صراع وعداء بين الروح والجسد كما نجده في الأديان الأخرى بل نجد التعاون الواضح لإيصال الإنسان إلى حياة روحية ومادية بأعلى إمكانياتها.

وهذا ما نلمبه في هذه الآيات:

١٧٢
وإتباع فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا
وأحسن كم أحسن الله إليك . . . [القصص : 77].
ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار [البقرة : 201].
يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا
ولا تسركوا إلا يحب المسرفين [الأعراف : 31].
لله من أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة
خير . . . [النحل : 30].
وليس في القرآن عالم الجسد وعالم الروح، وعالم السماء،
وبالله الهاوية .
بل الله الأمر جميعاً .
والله المشرق والمغرب .
وتوكل على الله وكنى بالله وكيله .
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا من عده وأورثنا الأرض نبوا من
الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين [الزمر : 74].
وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في
الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (1).

173

(1) النور/55.
فليس إذن في العقيدة الإسلامية إنسان متصدع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسم، وليس فيه عالم متصدع يتوزع بين السماء والأرض ولا خليفة متصدعة تتوزع بين اللعنة الأبدية، أو المغفرة عن طريق الصلب. وهذا مما جعل طه حسين يقر بهذا التناسق العجيب فقال: (على الرغم مما له في هذا الموضوع من آراء) وليس في التراث الإنساني كله شيء يشبه القرآن الكريم ..

وأما عن الوحدة في الموضوع فلم يكن مصادفة ولا اعتباطاً أن ينفق القرآن ثلاث عشرة سنة كاملة في تقرير قضية واحدة أصلية هي قضية الألوهية .. قضية الاعتقاد ..

لم يكن ذلك لأن العرب مغرقين بالوثنية فحسب ..

ولكن كان السبب إلى جانب ذلك وقبل ذلك .. لأن هذه القضية هي محور ارتكاز الحياة البشرية كلها لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفس الناس، ورسخت في ضمائرهم، وصارت هي الأساس والبناء التحتي لكل انتلاقة في هذا الوجود؛ لذلك ظل القرآن في الآيات المكية يؤكد على تثبيت العقيدة، وترسيخ التوحيد، ودحض الشرك، والوثنية، ففجأ لنا بتوحيد صاف لا يشوه غموض، فلا تعقيدات ..

(1) الإسلاميات ص ٦٣٨ .

١٧٤
في الطبيعة الإلهية ولا أسرار، ولا لبس في الاعتقاد، بل جاء بخلاصة المبادئ والغايات التي جاء بها الأنبياء، والتي وافقت توجيهه الخالص، وهذا كله واضح في هذه الآيات التي سأعرضها لديكم.

قال الله تعالى:

"أولئك نزلنا عليهم قوم نوح فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إنني أخوف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأ من قومه: إننا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكن رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون. أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتنتموا ولعلكم ترحمون فكنذبوه، فأنجيناه والذين معه في الفلك فأغفرنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين".

[الإعراف: 33]

"ولأعيد أخاه هوداً قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. أيا منا الذي كفروا من قومه: إننا لنراك في سفاهة، إننا لنظنك من الكاذبين، قال: يا قوم ليس بي سفاهة ولكن رسول رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين. أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم، وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة".

١٧٥
فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده
ونذر ما كان يعبد آباءنا فائتنا بما تدعنا إن كنت من الصادقين قال:
قد وقع عليكم من ربك رجس وغضب، أنجادلوني في أسماه سميتهم اسم
أتم وآباوكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المتقين
فأنجيناه والذين معه برحمة من وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين [الأعراف : ٧٨].

ولى نموذج أخاه صالحا قال يا قوم أعبدو الله ما لكم من
إله غير قد جاءكم بيئة من ربك هذه ناقة الله لكم آية فذروها
تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فاإخوانكم عذاب أليم
يا ذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبروك في الأرض تخذون من
سهولها قصرا وتنحن الينجف بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعووا
في الأرض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين
استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسى من ربه قالوا
إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي
آمنت به كافرون فعاقروا الناقة وعذوا عن أمر ربه وقابوا
يا صالح أتتنا بما تدعنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة
فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتم
رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين [الأعراف : ٧٩].

٧٦
وقال الله تعالى:

» وإلى مدين أخاهم شعيبأ قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءكم بيئة من ربك فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين، ولا ت تعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين» [الأعراف : 86].

ثم جاء القرآن ليؤكد ما جاء به الأنبياء السالفون فقال:

» قل أرأيت ما تدعون من دون الله؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم شريك في السماوات اثنون بكتاب من قبل هذا أو أثرة من علم إن كنتم صادقين» [الأحقاف : 4].

ونلمح في هذا تلقيناً من الله لرسوله عليه السلام شهادة كتاب الكون المفتوح، الكتاب الذي لا يقبل الجدل والمغالطة إلا مراء، ولا يستطيع الإنسان أن يزعم أن تلك المعابدات - سواء أكانت حجرًا أم شجرًا أم جناً أم ملائكة أم غيرها - قد خلقت من الأرض شيئاً.

ثم يؤكد القرآن مسماً أحلام الوثنيين موضحاً فكرة التوحيد.

قالاً:
ومن أصل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلا يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين [الأحقاف : ۶].

وإذا أردنا أن نجمع الآيات التي تبحث في موضوع العقائد لوجدنا المجموعات الهائلة التي ناقشت الموضوع من جوانب متعددة وغاصت في أعماق الفكر الإنساني منذ وجد حتى وصل الذروة من الكمال وهي تدق على ناقوس واحد وتهدف لغاية واحدة ألا وهي تثبت عقيدة الوحدانية، فأتي لإنسان عاش في كف الوثنية، ولم يسره غور الماضي ولم يطلع على المستقبل أن يأتي ببحث كامل عن الوحدانية ويناقشها في أدوارها ويبذل الدواء للقلة المستعصية لا شك أن القدرة الإلهية هي التي أوجدت كل ذلك، وما كان دور الرسول إلا التبيان والوضوح والشرح للغامض من القرآن ...

وبعد هذا كله لا ضير علينا إذا ناقشنا الأمور الكلية في القرآن (كموضوع الإرث) وتقسيماته الدقيقة، وحقوق كل فرد بتناسق حسابي عجيب حتى صار علماً بذاته، وله أصوله، وفروعه، وكلياته، وجزئياته، وكل هذا بتناسق مع الفكرة الإسلامية الجامعة للحياة الاجتماعية من نظام الأسرة، ونظام المجتمع، وما تولد عنها من تكامل الحياة ضمن الأسرة. فهذه آيات تؤكد على طاعة ١٧٨
والوالدين وتقرنها بالعبادة لله ﷺ وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ۔ وتلك آية تبحث في نظام الزوجية وتعاؤلها والمشاركة الفعلية بمساق نفسه ۔ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لسكنوا إليها وجعل بيكم مودة ورحمة إِن في ذلك آيات لقوم يتفكرون ۔ والعتمم للبحث يجد هناك آيات في حقوق الزوج وحقوق الأولاد ومشكلات المجتمع ، مما يدهش الباحث المعمّق . فالمحترفي للحقيقة يجد نظام الأسرة في الإسلام بشكل لا نظير له ، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها وفصلها وكشف اللثام عن خفاياها ۔

ومن الجزئيات الهامة المفصلة مشكلة الربا والاحتكار والغبن في البيع ، وطلب كتابة الدين وإشهاد الشهود ، وحقوق المحتاجين . كل هذه الأمور شهادة على أن هذا المنهج المتكامل خطط للإنسانية من قِبَل الله سبحانه وتعالى ولا بد للبشر عن هذا النهج الرفيع ۔ لأننا نجد فيه الحلول السليمة لمصائب الرأسمالية كلها من طغيان وفساد ، وإذلال للخلق واستعمار بشع ، واستغلال للشعوب ۔ كل هذا عن طريق الأمور التي حرمها الإسلام كالرـبا والاحتكارات ۔ وكلها تقوم على أحكام الربا والاستغلال علماً بأن هذه الأمور لم تكن واضحة يوم نزل القرآن ، ولم يكن ظاهراً

(1) الروم/ 21 .

179
بأن الرأسمالية الطاغية ستقوم على الربا ثم على الاحتكار. وإن تحريم الربا والتشديد في تحريمه بالإضافة إلى تحريم الاحتكار يكفي وحده لأن يثبت دينية هذا المنهج...

ولو استعراضنا هذا المنهج الاقتصادي الإسلامي في نظرته العامة التي تقوم على استخلاص الله للإنسان في الأرض، إني جاعل في الأرض خليفة وعلى كون المال مال الله، والجماعة الإنسانية مستخلافة فيه، كل ذلك وفق الشروط المبينة في شريعة الله عز وجل، لرأينا في القرآن تناسقاً في النظرية، وإحاطة للفكرة، وتحقيقاً للغرض الذي بدأ به وبحثه، ولا نجد تنافساً في المنهج العام والخاص للنظام الاقتصادي بل نعثر على تراث وتكامل كلي بين الجزيئات والكليات.

وبعد هذا إننا لأدعو المعتقلين العرب أن يحيطوا بالفكر القرآني ومنه الفكر الاقتصادي الذي بحث من قبل الكثير من المفكرين المسلمين مثل كتاب (اقتصادنا) لباقر الصدر وبحث العدالة الاجتماعية وبحوث كثيرة منها كتاب التنمية الاقتصادية والإسلام لنجاك أوستري... وبعد ذلك عليكم أن ننظروا نظرة سليمة لأنه هل يعقل من رجل عاش قبل أربعة عشر قرناً أن يعطي بحثاً اقتصادياً متكاملاً، حين كانت الإنسانية تسير خط حكمة حيث لا حاجة لهذه الأمور الاقتصادية ولا ضرر منها، وقد بحث أموراً وصلنا
إليها في مجتمعنا العالمي اليوم كالربا والاحتكار الذي آلت إليه البشرية بين الحروب العالميتين الأولى والثانية.

وإذا كان محمد هو الرجل العبقري الذي قام بكل هذه الأشياء، ودعا إليها فلا يعقل أن يكون بشراً عادياً، وما دام يؤكد بشريته فقل إنما أنا بشر مثلكم، فهذا يدل دلاله مبيناً على أن مصدرية هذه البحوث المتناقضة في كل من الحكم والمال والاجتماع، وجميع الأمور التي يتناولها القرآن من مصدر علوي ذي قدرات خفية وعظيمة وغيبية. كل هذا رد فعل من من يقول بشرية القرآن الكريم ودحض للفرية القائلة، ( وما القرآن إلا اتباع للبيئة العربية في نفس الرسول) وقد ردد هذه الفرية بعض المثقفين العرب نقلاً عن أسبادهم المستشرقين مثل (جبر) في كتابه المحمدية فما هو جواب هؤلاء المتطعمين على تناسق الفكر القرآني، وكيف يستطيعون الجمع بين الغيبات التي ناقشها القرآن وأوجد لها الدواء الشافي مع قولهم بالبشرية للقرآن... وهل بإمكانهم القبول بالتحدي الذي تحدثه القرآن به. وخاصة منهم كبار الأدباء والمهندسين في المجتمع العالمي...

وهناك فئة تقول: إن كان هذا القرآن متناقساً، والرسالة صالحة بكليتها فلماذا لم تنجد سلوكاً مستمراً على مر الزمن؟... 181
الجواب: إن العقيدة الشاملة هي التي تضع للناس مقاييس للأعمال والأخلاق وليس هي المجبرة التي تعمل بأيديهم ما يطلب منهم أن يعملوا أحراراً في الرأي والشعور ولو كان شفيع القانون للبقاء أن يتفه كالأصبع له حرباً حرباً وأن يستنجد خلفه أصلًا وفرعاً لما كتب لقانون بقاء ... وكذلك الأخلاقيا فهي باقية على الرغم من تضافر البشرية لتطبيعها ولإبعادها من حياتهم العملية، وما أجمل أن ننوي بحثنا يقول رائع للباقلاني يصف تناسق القرآن:

"تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب، مجلّوة عليك في منظر بهيج، ونظم أنباق ومعرض رشيق، غير متعاص على الأسماع، ولا مثقل على الأفهام، ولا استكره في اللظ، ولا مستوّح في المنظر، غريب في الجنس غريب غريب في القبائل، متمثلٌ ماء ونضارة، ولطفاً وغضاوة، يسري في القلب كمشروع السرور، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، وضيء كما يضيء الفجر، ويغير كما يغير البحر، طموح العباب، جمح على المتناول المعتاب، كالروح في البدن، والنور المستدير في الأفق، والغيث الشامل والضياء الباه.

لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" [فصلت: 42].

١٨٢

http://kotob.has.it
الدليل الثامن
القرآن والعلم

قال الفيلسوف الإفريقي ألكسي لوزان : «إن القرآن الكريم هو آية في البلاغة وسجل للأخلاق وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية فانانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية».

وإن الآية الأولى التي نزلت على محمد ﷺ لتدق ناقوس العلم ليتحرك...

اقرأ باسم ربك الذي خلق... ثم الآية الثانية ﷺ:

والكلم وما يسطرون...»

وهذا قسم عظيم، فيه تقديس للمقسم به، وإعلاء لشأنه... واستمر القرآن بآيات كثيرة يعتمد في مسيرته الفكرية والاجتماعية والسياسية على العلم والمعرفة وكان يؤكد على فضل العلم...

يرفع الله الذين آمنوا والذين أتووا العلم درجات...»

183
إنما يخشى الله من عباده العلماء.

فالقرآن كان الباب الذي خرج منه العقل البشري الناضج بعد أن قطع الدهر في طفولته ومراثيه، وكان المرحلة النهائية لمرافحت الأديان والكتب المقدسة السماوية ... وكل دين سماوي ما هو إلا طور من أطوار النمو لهذا العقل الإنساني، وما التاريخ إلا مقياس عقلي درجاته وأرقامه هذه العصور المختلفة التي يستخدم العقل فيها مقدار زيادته، ومقدار نقصانه. ولذا جاء القرآن خاتمة لمرافح النضج البشري، وذروة في الكمال الإنساني، فوضع الأسس الثابتة للمعرفة، والخطوات العريضة المستقرة للحياة على هذه البساطة، وأرسى قواعد الحضارة وخلّ الإنسان المسؤولية الكبرى في جميع تصرفاته، وهذه الآية تشهد بذلك إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا، وأكد في الحض على طلب العلم والمعرفة ولم يقصرها على العلوم الشرعية فقط بل إن كل علم نافع فهو في الشريعة الإسلامية فرض كفاية: إن لم يوجد في الأمة من يعمق ويختص به أثبت الأمة جميعاً وإن قام به بعضهم سقطت فرضيته عن الآخرين.

إن عدد آيات القرآن التي ذكرت العلم ونوهت بفضله تزيد عن 835 آية. ولا يعرف مثل هذا الحافز العلمي والاجتماعي في غير القرآن، ولم ترقى الأمم الحديثة إلا به وإذ تجد لكل علم رجلاً.

184
ينطقون به ويحيون له، ويروتون عليه، وبهذا يدعو الإسلام إلى العلم بلا نظير وهذا يلمح في قوله تعالى:

«فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» [التوبة: 132]

بالإضافة إلى طلبه للعلم، والبحث عليه فقد جاء القرآن كافشاً اللثام عن بعض العلوم، ولو بشكل مقتضب وقد أثبتها قبل أربعة عشر قرناً، ولقد أشار إليها العلم وجاء مؤكداً لها:

«ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طبقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً» [روح: 16]

وهذا هو العلم يثبت أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراج) إذا النور لا يكون من ذات نفسه ابتداء، ولا بد له من مصدر يبعثه فذكر السراج بعد النور. وهذا دليل على أن هذا مصدر لذاك فتأمل. أمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من الأميين يحدث الناس قبل أربعة عشر قرناً حيث لاكتشاف للعلم عن ذلك ولم تصل علوم الفلك إلى القبول بهذه النظرية، وقد ثبت الآن بالدليل القطاع عند العلماء وخاصة بعد صعودهم إلى القمر وكشفهم للأيام المظلمة والأيام المضيئة على سطحه حيث لا تنعكس الشمس في أيام وتكون أيام القمر مظلمة والأخرى تنعكس فتسمى أياماً مضيئة.

185
والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العلم.

والله التوفيق لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العلم.

وهذه الآية العلمية الفلكية تشهد على نبوءة محمد لأن العلم الحديث قد أعلن بالسير المستمر للشمس نحو نجم كبير يسمى الجاثي ... وإن هذه الآية في ظاهرها كانت تخالف ما أجمع عليه علماء الفلك في عصر اليونان وهذه الاكتشافات الحديثة أتت مبكرة للقرآن ..

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف برك أنه على كل شئ شهيد » [فصلت : 53].

أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كننا رتقاً ففتقواها وجعلنا من الماء كل شئ حي أولاً يؤمنون » [الأنبياء : 25].

إن هذه الآية القرآنية تخبرنا أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصلاً الأجزاء ثم انفصلتا ..

هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً مكوناً من غاز ثم انقسم إلى سدام ، ومجرتنا الشمسية كانت نتيجة تلك الانقسامات وما يؤيد هذا القول أن العلماء استندوا على أن في الشمس 17 عنصراً من عناصر الأرض والعناصر الشهيرة في الشمس هي ذاتها الشهيرة في الأرض.
وهي: الهيدروجين والهيليوم والكربون والآزوت والأكسجين والفسفور وال الحديد الخ. استدل العلماء على كل ذلك بالتحليل الطيفي وهو الذي يستدله به الكيميائيون اليوم في معاملهم على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر يكشفون عن نوعها وعن مقدارها.

ومن ناحية أخرى فإن النيازك هي المواد التي هبطت من إحدى الكواكب وتبردت. وموضوعة في المتاحف العلمية الحديثة في العالم، هي الأشياء الملموسة الوحيدة التي حصل عليها العلم من الفضاء الخارجي. ولاحظوا أن أكثر العناصر شيوعاً في الأرض هي ذاتها الشائعة في النيازك الحجرية التي عثروا عليها، أما الشطر الثاني من الآية:

«وجعلنا من الماء كل شيء حي».

فهو من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية، أدرك العلماء سرها فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو يحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات. والماء يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض، وله درجة ذوبان مرتفعة، وهو يبقى سائلاً فترة طويلة من الزمان، وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت ويعفِّدُها من التقلبات.

١٨٧
العينة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة إلى حد كبير، وللماء خواص أخرى تدل على أن مدفع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته. فالماء هو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها ويزيد حجمها عندما تنبض ولهذا الخاصة أهميتها الكبيرة بالنسبة لحياة الأحياء المائية، إذ تسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص إلى أعماق المحيطات والبحيرات. ويكون الثلج طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد. والماء يمتص كميات كبيرة من الأكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار من الأسماك وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن الذي بين كلمات قليلة العدد سر الحياة على هذه الأرض.

هذه الآية من أقوى الدلائل على صدق نبوة محمد، فالقرآن استهل هذه الحقائق عن وحدة الكون وسريع الحياة بمحاولة الذين كفروا بوجود الله بهذه الدلائل العلمية الدامغة التي تدل على وجوده وصدق نبوة الرسول لهم، والتي لم يدرك العرب في الماضي أسرارها بل أدركها العلم اليوم بعد جهود استغرقت أجيالاً في مجالات هذا الكون.

ونرى في خاتمة الآية استبطاء مع استفهام فيه الاستغراب والتعجب
من جمود فكر المجادلين بقوله: أفلا يؤمنون.

آية النحل في القرآن التي تجلت بفوائد جمة للعسل وقد استحضرها الأطباء وأجمعوا على علو الفائدة من استعماله فلنقلن بين الآية التي تقول:

«يخرج من بطنها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» [النحل: ۱۹].

نجد أن القرآن يقرر بأن في العسل شفاء للناس ووجهات الاكتشافات الطبية الحديثة تؤكد عملاً وعلميةً الشفاء المكون في العسل والدكتور جارفيس الطبيب المتخبر من مدارس الطب البريطانية وصاحب المباحث العلمية الشهيرة يقول في كتابه ( عن الطب الطبيعي) قال: إن الدكتور ساكيت أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في فوت كولنز وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف. فماتت جراثيم التيفويد بعد ثمان وأربعين ساعة. وماتت جراثيم النزلات الصدرية في اليوم الرابع وماتت جراثيم الدوستناريا بعد عشر ساعات وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات.

ثم يقول ويقرر أن البكتريا لا تعيش في الشهد لاحتوائه على مادة البوتاس وهي تحرم البكتريا تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها.

١٨٩
ثم نقل تقرير الأستاذ شويب العالم الكيماوي الذي يقول فيه:
إن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان الشهد ويبين علاقة
المواض الغذائية باختلاف ألوانه وما احتوتة من أسباب الشفاء ثم يعدد
مزايا المادة السكرية في الشهد قائلًا عنها:

1- إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية.

2- إنها سريعة التحلل في البنية.

3- إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بندية.

4- مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة.

5- إنها من بين أنواع السكريات أوفقها للكلتيتين.

6- إنها مهددة مطلقة.

7- مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلاً عن سهولة الحصول
عليها.

ثم يلخص خصائص الشهد النافعة للعلاج بخمس وعشرين
صفحة.

وبعد هذا التقرير الطبي ماذا نقول، أتى ل محمد بن عبد الله أن
يتعرف هذه الأسرار المختبئة وراء العلوم، وخلف القرون التي لم

(1) ما يقال عن الإسلام ص 72.

190
يكشفها العلماء إلا في عصرنا الحديث .. بل نجد أن القرآن قد خصص سورة كاملة سماها ( سورة النحل ) وذلك لأهميتها وفروضها وما عرف الرسول ذلك بالدراسة أو بالنقل ، لأن تلك القواعد لم تكن معلومة ، وهذه الآية هي الدليل القاطع على توافق العلم الحديث بأعلى اكتشافاته الحديثة مع كتاب الله عز وجل .

ولم يبين قيمة النحل إلا من أوجد سرائر العلوم وخفاء الأشياء ولن يكون الموجود لهذا الكتاب العلمي الفكري الرائع إلا موجد الأشياء وحالةها ..

ولأذا فماذا يجري الملحد والمكابر على مقارنة هاتين الحقيقتين: توافق القرآن في هذه الأمور مع توافق العلم لما آل إليه من بحث واكتشاف .

قال الله تعالى:


أما ترى معي أن هذه الآية تشرح وتصف أتساع الكون أم أنها تقرر نظرية تمدد الكون .

فمن الناحية الأولى نرى أن آيتيتين يتخيل سعة الكون بأنه يسع لبلايين من السدم ، كل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملمتهة (1) وهذا ما قره علماء الفلك وإذا أردت سعة

(1) عن كتاب ( العلم وأشيئتي ) .

191
الاطلاع على هذا الموضوع فوسيع مراجعة كتاب ( مع الله في السماء ) لأحمد زكي فهو يقرر فيه أن في السماء نجومًا بعدد حبات الرمل الموجودة في مساحة أرض كبريتانيا على عمق 300 متر. وقال بعضهم لو وضعت على خط الاستواء رقم 1 ثم وضعت أصفاراً أمام الواحد حتى ينتهي خط الاستواء في الطرف الثاني لكان عدد النجوم أكبر من هذا العدد.

أما نظرية تمدد الكون التي يقرها القرآن فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السمدخارية، حركات نظمية استدلو منها على أن جميع السمدخارية أو «الجزر الكونية» تبدو على أنها تتبع عن مجموعتنا الشمسية، بل وتباعد بعضها عن بعض، وعلى هذا الأساس، فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تمتد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها.

وقد تقدم عدد من العلماء الفلكيين نظريات تشرح لغز الكون الممدد منهم الدكتور هابيل رائد الباحثين في السدم فقد لاحظ أن هناك نسبة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد، وهي أنها أميل إلى الإدبار عنها إلى الإقبال كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بزيادة أبعاد هذه الجزر الكونية.

(1) (كتاب الشمس) الدكتور جورج جايمون.

192
قال الله تعالى:

» فمن رعد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » [الأنعام : 125].

هذه الآية توضح ما اكتشفه العلم الحديث وذلك بفضل الطيران والبالونات وأدرك العلماء بأن في الصعود ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص أكسجين الهواء في طبقات الجو العليا فيشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق ... علمًا بأن محمدًا ﷺ كان يعيش في سهل ولم ينطلق بين الجبال، لأنه ربما يقال بأنه استدل بها من تجاربه الشخصية فجرى روح الإعجاز قد خيم على هذه الآية التي صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعواضح الضيق ، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتداد الطبقات الجوية العليا ، فضلًا عن أن الآية لم تعبّر عن لفظ الصعود في الجبال بل عبرت عن الصعود ( في السماء ) وعلماً بأن بلاد العرب ذات سطح مبسط وصاحري ممتدة لا يعرف فيها الساكن فكرة عن تسلق الجبال العالية ولا يشعر المتسلق فيها شيئاً من الضيق ، وهذا الاتفاق الرائع بين الآية القرآنية والعلم يثبت صدق نبوة محمد ﷺ .

قال الله تعالى :

193
وإن من شيء إلا عندنا خزائه وما ننزل إلا بقدر معلوم
[الحجر: 21].

وقال أيضاً:

وفقُ في علمك عنده بمقدار [الرعد: 8].

وقال في موضوع آخر:

وفقُ في علمك عنده بمقدار [الحجر: 19].

إن الباحث الموضوعي يرى التراماد والتوافق بين الآيات والواقع العلمي الحديث وعلى سبيل المثال نجد أن نسبة الأكسجين في الهواء 21 ٪ فلو ازدادت لأحرقت كل مادة قابلة للاحتراق، لدرجة أن أول شرارة من البرق تسبب شجرة لا بد أن تلتهب الغابة التي حولها... 

ونلاحظ أن تغذية القلب للأعضاء فيها الاتزان والتناسق في العطاء، فالعين تأخذ قدر حاجتها والفم يأخذ قدر حاجته وكل شيء في مقدار معلوم لا يتعداه ثم إن إشعاعات الشمس هي مقدار فلو أقصيت الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت الأرض ومن عليها ولو ازدادت بمقدار النصف لأصبحنا رماداً... 

والمتأمل الجاد يرى أن الشمار تنوع خلال فصول السنة ويميز...

١٩٤
النسيج المرحللي في النوع الواحد دون طفرة واحدة ويرى أن المقدار ينضج بالتدرج ثم يستهلك الإنسان ثم ينضج غيره وتستمر الشجرة بالعطاء لفترة شهر أو يزيد. فكل بقدر معلوم...

وهذه الآيات العلمية الثلاث تثبت خلاصة ما قاله العلماء عن القوانين العلمية والدستور الرياضي. وهل كان محمد باحثاً أو فيزيائيًا أو كيميائياً أو أنه الوحي الذي بكل هذه الآيات العلمية يمزج قلوب الجاحدين ويلين أسماع المغتالين على مر العصور وهذا مصداق قوله تعالى:

» سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق« [فصلت: 53].

بعد هذه المجموعة من الآيات الفكرية علينا أن نصغي إلى أقوال العلماء في علوم القرآن وموافقتها للعلوم الحديثة. وهذا بريغولت في كتاب (بناء الإنسانية) يقول: لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. ثم يقول إنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة ناطقة.

وعليها أن نثبت لك في الكتاب مقاطعات مما قالته الدكتوراه لورافيشيا فاغليري في كتابها (دفاع عن الإسلام) تصف العلم...
العميق في القرآن وتنفي أن يكون من صنع محمد ﷺ. فتقول:

"إذا نقع ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تعجز أكثر الناس ذكاء وأعظم الفلسفة وأقدر رجال السياسة. ولهذه الأسباب كلها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف قضى حياته كلها وسط مجتمع جاف بعيد عن أصحاب العلم والدين، رجل أخبر دائماً أنه ليس إلا رجلاً مثل سائر الرجال فهو يوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات . . . .

وإن القلم ليدفعني دفعاً حيثياً لأكتب ما قاله أحد كبار المبشرين في أفريقيا عن الحضارة الإسلامية وأثر القرآن في دفعها للعلوم والمعرفة فقال بابن في كتابه "دور الإسلام في مستقبل القارة الأفريقية".

إن أسباب انتشار الإسلام بين الأفريقيين - إذا روععت أسبابه جميعاً - إنها هي نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة ولم تكن في العالم حضارة تضارعها، أو تقوى على مغالبتها، وإن وصول الإسلام إلى القارة الأفريقية كان ملازمًا لوصوله إلى القارة الآسيوية، وقد كان امتياز حضارة الإسلام سبيلاً كافياً لسيادته على العالم المعمور، والعالم المجهول الذي يصل إليه العربي المطبوع على الرحل والسياحة يعيه على مطاوعة هذه النزعة أنه اقتبس كل ما يقتبس من اليونان، والأمم القديمة من علوم الجغرافيا والفلك،

١٩٦
وزاد عليها حب الكشف الذي سرى إلى جميع المسلمين).

وبينما كان الأوروبيون يقولون على السحر كان أطباء العرب يجريون عمليات الجراحة الصعبة، ويحسنون الانتفاع بكل شكل من العقاقير، ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الأطباء في علاج بعض الأمراض إلى هذه الأيام.

ولا ريب أن عقيدة ما إذا كانت متنافية مع العلم والعقل، بل كانت عقبة كأداء في سبيل تقدم المدنية والحضارة، فليس لها مجال أن تستولي على ذهن الإنسان، وتستثك عقليه وعاطفته بحيث تظل قوة قائمة لها وزنها، وتتحت مرتبة من مراتب الارتفاع العلمي والعقلي، وممكنة لكل مرحلة من مراحل المدنية والحضارة بل إن بقاءها رهين ببقاء نظرية فلسفية محضة في بطن الكتب لا تكادنبذة بعد تناسب الأيام ولا ترجع بأي جدية على نظام الأمة وأخلائها، وأما إذا كانت عقيدة تعتمد على أسس فكرية وعلمية محضة فهي التي يكتب لها البقاء في عالم الوجود وهذا ما نشاهده في عقيدة القرآن من بقاء وتمثل في الأفراد والمجتمعات، وبالإمكاني كما حدث في عهد الخلفاء الراشدين إقامة مجتمع القرآن لأن هذا الكتاب أتي ليواكب العقل ويأمر بالعلم ويحذر عليه؛ وقد كتب ذلك العشرات من العلماء المتضمن وهذا واضح لمن يقرأ كتاب الله، ولكن وللاسف إن عدد القارئين لكتاب الله من الذين

197
يعادونه قلة ؛ وما عاد يكتب الله إلا جاهل ، والإنسان عدو ما جهل وهذه لحية بسيطة وسريعة عن بعض الآيات التي تدعو إلى الكثير من العلوم الحديثة والقديمة وقد لبى بعض المسلمين نداء القرآن وبذا تكون النهضة العلمية الإسلامية منذ مطلع العصر العباسي وخررت قوافل العلماء لترسي قواعد الحضارة الإسلامية .
فهذه مجموعة من الآيات الصريحة في دعوتها للعلم والمعرفة :

١ - قل سروا في الأرض ثم انظروا (١). إن هذه الآية فيها تصريح لا تلميح في دراسة جغرافية الأرض وتاريخ الشعوب ، وحياتهم الاجتماعية والسياسية ومعرفة الأسباب المؤدية إلى ارتفاع الأمم وانخفاضها ، وقد درس العلامة إبن خلدون هذه الأحوال ودون في مقدمته المشهورة لمحة عن علم الاجتماع وكيفية تكوين الجماعات والعوامل المتعددة في دفع القوى الاجتماعية ...

٢ - هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكّر أولو الألباب (الزمور : ٩) .

وهذه الآية تبين فضل المتعلمين وشرفهم بل تجد أنهم متميزون عن غيرهم ثم حصر التذكر في أول العلم والمعرفة ...

٣ - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (١).
العلم الذي يدعو إليه القرآن:
هل المراد كما يظنهم البسطاء من المسلمين والأعداء؟
العلم الذي يدعوه العلماء الدیني فقط لا .. ثم ألف لآ .. بل هو كل علم نافع، وقد قسم العلماء العلم إلى قسمين:
فرض عين: وجب على كل مسلم يتعلمه، وفرض كفاية: إن تعلمهم بعضهم كفى وإن لم يتعلمه أحد كانت الأمة آمنة عاصية عز وجل وان تنصت هذه الآيات ونرى أن سياقها يدلنا على أن العلم هو كل علم نافع:
قال تعالى:
فلينظر الإنسان مما خلقه خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والتراب (الطراق : 5-7) .
وفي علم النشوء يقول لنا:
قل سروا في الأرض فانظر كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ
النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قادر (المعكبوت : 20) .
وفي علم النفس: يتجلى لنا في قوله:
199
وفي أنفسكم أقولاً تفصيلًا [التاريكون : 1]  
أليس النظر في أعوار النفس يوصلنا إلى معرفة الغرائز والدوافع والميل والملكات؟ وفي التاريخ والاجتماع نرى يوضوح في قوله تعالى: تلميحاً عليهم:  
أولم يسيروا في الأرض فسرون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثراً الأرض وعمروها أكثر مما عموها وجهاء رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [الروم : 9].  
لم يأمرنا بمعرفة تاريخ الأمم السابقة فقط بل والعبرة من دراسة التاريخ، وهذا توجيه علمي للفائدة من البحث والاطلاع. وفي هذه المناسبة لا يأس أن نسوق بعض الأقوال لمؤرخى أوروبا عن العلم والإسلام:

قال العلامة ديرير في كتابه ( المنازعة بين العلم والدين):  
إن اشتغال المسلمين بالعلم يصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية سنة 138 م أي بعد وفاة محمد بست سنين ثم قال:
فإنهم قد رفقو العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم.

وقال العلامة سيدلود في كتابه (تاريخ العرب):  
كان المسلمون في القرنين الوسطى منفردين في العلم والفلسفة

200
والفنون وقد نشروا أينما حللت أقدامهم وسرت منهم إلى أوروبا فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها ..

وقال الدكتور جوستاف لوبرون في كتابه (حضارة العرب)
ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعترفت حضارتهم ولو حيناً من الزمن ولم ينطلق تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الآثر البالغ في ثقافته العلمية أيضاً ، وثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها.

ونقل عن الأستاذ ليبري قوله:

لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت حضارة أوروبا الحديثة عدة قرون وبعد هذا كله نصل إلى الاستغراب الشديد لرجل قبل أربعة عشر قرناً قد دعا إلى العلم بهذه الدرجة ؛ ويبن فضله ؛ وتتكلم عن المكتشفات العلمية من وحي ذاته دون مؤثر خارجي ، وإن المنصف للحق يقول إن المشيئة الإلهية هي التي بنيت كل ذلك ، وما هو إلا الوحي ، وإلا فما هو تفسير ذلك إن لم نقبل بالوحي ..!!

(1) إذا أردت الزيادة في هذا البحث فعليك مطالعة كتاب (التأريخ والإنجيل والقرآن) دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف =

211
فجميع العباقرة والمصلحين لم يأتوا ب مثل ما جاء به النبي المرسل محمد ﷺ.

الحديثة للدكتور موريس بوكاي. وكتاب الإسلام كبديل للدكتور مراد هرومان سفير ألمانيا في المغرب وكتاب الإسلام ومستقبل الحضارة للدكتور صبحي الصالح.

202
الدليل التاسع
الحضارة والقرآن

استطاع القرآن أن يضع حجر الأساس ليبدأ بتشييد الحضارة العالمية وأرسى قواعدها في الجزيرة العربية بفترة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة، واستنلب الأمن بعد فوضى وتجمعت القوى العربية المبثرة المتلاحقة، كل ذلك تم بفضل الرسالة التي تكاملت في القرآن.

وأما أجمل الوصف الذي جاء به جعفر بن أبي طالب مطابقاً ملك الحبشة وشارحاً له وضع الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول وبعداً موضوعاً له المبادئ التي جاء بها محمد ﷺ عن ربه والتي لا محيط للإنسان عنها إذا أراد تشييد الحضارة الجديدة، فقال: 

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، وتأكل الفيتة ونأتي الفواحة، ونقطع الأرحام وننسخ الجوارات، وناكل القوي منا والضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقته وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحده، ونعبده ونخلع ما كان نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجاره والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن"
الجوار، والكفر عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليد Favorites وذق المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناء وآمنا به واتباعنا على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرمنا وأحللنا ما أهل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبنا وفتنونا عن ديننا ليزردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا تستحل من الخبلات فلما قهروننا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترنا على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عننك أيها الملك

والحقيقة تقال بأن أكبر معجزة تاريخية لرسول الله ﷺ هي التي بقيت إلى اليوم معضلة في تاريخ العالم، وهي تأليف العرب على تعاديهم وتناقورهم، والزحيف بهم على قتلهم وضعف وسائلهم، وتوثبهم على قهرهم وغنى سواهم حتى اكتسحوا دولة الفرس وقيضا مملكة الروم، وهم يؤمنون الدنيا القديمة، وهم العينان في رأس التاريخ. وقد توافت جيوشهما والتحمت في مواطن القتال، وسعا الأرض ناراً وحرباً مدة ثلاثة قرون أو حول ذلك. ولا شك أن كل هذا لم يتم إلا بالوسائل الحضارية التي

(1) السيرة النبوية لابن هشام ص 326
بثها القرآن في جانب آياته، فلولا هذا القرآن لم تثبت في النفوس
هذه القوة المعنوية الرائعة ولما كان لموحدين أن يغير وجه التاريخ
ولذا قال القرآن له:

» لو أُنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن
الله ألف بينهم إن الله عزيز حكيم [الأنفال: 63].

ولا يمكن للحضارة أن ترفع أسسها إلا بالتعاون بين أبناء الأمة
التي تريد أن تشدد لنفسها حضارة، وقد ظهرت معالم التعاون
والألفة حتى صار تاريخ الأرض يومدنا عربياً، وصار بعد الذلة
والمسكنة أبياً.. واستوحي للمسلمين من الأمر ما لم ترو الأيام مثل
خبره لغير هؤلاء العرب، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض
وكانوا حسبين يمسكونها، لا غاية يفتحونها، فلا بد
السيف حسب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره,
ولا عجب فقد فتحت القلوب للشريعة قبل فتحها بالسيف ودخل
الناس في هذه العقيدة لأنها أرادت أن تحررهم من عبادة العباد إلى
عبادة الله...

وقال أحد المفكرين العرب وهو: لبيب الرياشي:

لقد أضرر الرسول ثورات في ثورة، مفتشاً فضاء واسعاً للعلم
واحترام العلماء والعقل والعقلاء والفكر والمفكرين وهذا شيد نواة
الحضارة، وأقام لها ركنها الركن وقال الرسول ﷺ العلماء

205
مصائب الأرض وخلافاء الأنبىاء .. وبهذا كان يداً كبرى في إقامة
صريح الحضارة العالمية ، وهو تقام الحضارة إلى على العلم
والعلماء والفكر والمفكرين ..
وإن عمل الرسول لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسمى
من التعظيم والإعجاب والديناء ، وأنى لإنسان أن يأتي بما جاء به
دون عون من الله له ..
فلقد نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم
تكن أصناماً تزيد الإنسان ذوقاً وجمالاً ، بل كانت أصناماً شائهات
كتعاوذ السحر التي تفسد الأذواق ، وتفسد العقول ، فنقلهم
محمد ﷺ من عبادة الدمامة إلى عبادة الحق الأبدى الأعلى عبادة
خالق الكون الذي لا خالق سواه .. ونقل العالم كله من ركود إلى
حركة ، ومن فوضى إلى نظام ، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة
إنسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب
الدعوات حتى يومنا هذا ..
فلو لم يأت الرسول لتغيرت معالم الحضارة العالمية ، ولضاع
تراث العالم القديم ، ولاستمرت حياة الغاب ، وبذا كانت بعثة
محمد ﷺ طفرة تاريخية عجيبة أدهشت عقول المفكرين .. فقاتلت
الكاتبة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكة(1) :

(1) شمس العرب تسطع على الغرب ص 389 .

206
إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم، هي من أعجوب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ الحقل البشري، فسياسة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة التي يحار الإنسان في تحليلها وتكيفها.

وقالت أيضاً: إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الدين الإسلامي كبير جداً.

وبالفعل، معضلة لا يمكن للعقل الإحاطة بها إلا بالتسليم لعظمت هذه الشريعة، فلقد استمد المسلمون من شريعتهم القدرة، وتناولوا منها المفتاح الكبير، وافتحوا به العالم فأداروه في أقفال الأرض، وبدأ فتحت الدنيا لهم واستمروا في تشييد حضارة الإنسانية، وقادوا للعالم مجموعة من القيم العليا، وحافظوا على التراث الماضي، وزادوه من عباقريتهم وحثهم وإطاعتهم . وهذا يقول جوستاف لوين في كتابه (حضارة العرب): يقول هذا الكلام مع تأسفه الشديد لانكسار العرب في معركة بواتيه: لئن تنصر العرب في هذه المعركة فتقدمت الحضارة العالمية ثمانية قرون.

فقد كانت ثورة الإسلام على الماضي الممزق، والعباد المميت لهي الثورة المنطلقة من أسس الحضارة التي لا بديل لها في

207
عالم الإنسانية، ومن هذه الأسس، كشف الظلم عن بني الإنسان، ورفع لواء الحرية للإنسانية وهذا ما قاله الرسول الذي ذهب إلى رستم قائد جسرى قال له:

"نحن أتينا لنبعد الناس عن عبادة العباد إلى عبادة الله"

وهذا ما قاله أيضاً الأب الروحاني الدكتور نقولاً فياض:

ولا يزال المجال فسيحاً للكلام عن الثورة الكبرى التي أثارها صاحب الرسالة الإسلامية على الظلم والعبودية، وحب الأثراء والعادات الوثنية، وإنها ثورة ظاهرة بما علم فيها من الرحمة والعفو، مقدسة لكونها سامية المنشأ، نافعة بما احتوت من العلم وحب له ودفع إليه، غنية بما أورثها من صبر الجهاد وقناعة النفس.

ولنسمع ما يقوله العالم المسيحي المنصف لبيب الرياشي:

ما أعظم الرسول الذي كون من قبائلهم العربية البدوية المتخصصة، الضارية المشاركة الجاهلية الأمية الظالمة، التي لم تكن شيئاً، فكون منها أمة محترسة متحيدة ودقيقة، قوية موحدة، عالمة مجاهدة، منصبة عادلة. أصبحت كل شيء بثلاثين سنة(2) وهكذا كانت الحضارة الإسلامية متكاملة الجوانب ليست كالحضارة الغربية

السويمران الأول العالمي.

المصدر نفسه ص 27.

208

http://kotob.has.it
الحاضرة التي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان، من حياة مادية ولكنها قد قصّرت على عنصري الروح والمادة وبذل وصلت الإنسان في الزراعة لإسعاده، بينما في تلك الحضارة قد ارتكزت سعادته، لأن الحضارة هي مجموعة العوامل المساعدة للإنسان على ترقية نفسه من جميع الوجوه، ولا تقتصر على اختراع الوسائل التي تنقص المجهود الجسدي فحسب. وتسمى إذا اقتصرت على الافتراع فقط آلية مساعدة على التطور فقط، ولكن الحضارة هي التي تبني من الداخل وتعني من الخارج دون هدر لأحدهما. والإنسان تكامل إنسانيته بعواطفه وأحاسيسه وشعوره الضمي بالإضافة إلى تكوينه الفكري ومرتكزاته الاجتماعية.

فالسعادة ضمنية، والحب والإخاء والسرور والحزم كلها نابعة من الداخل وهذا ما شاهدناه في حضارة القرآن وعلى سبيل المثال نرى العناية في المادة:

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل». 

قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبادته الطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة».

[الأعراف : 32].

«كلوا من طيبات ما رزقناكم». 

٢٠٩
يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» [الأعراف : 131].

وهناك عناية بالناحية النفسية نجدها واضحة في هذه الآيات:

» قد أفلم من زكاها وقد خاب من دساها».
» ألا بذكر الله تطمن القلوب».
 » إنها لا تعمى الأبصر ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرحمن على الذين لا يؤمنون» [الأنعام : 125].

فلنعد إلى التاريخ لنرى تأثير القرآن في تغييره وتحويله أمة جاهلة غافلة شديدة التنافر والتدابير، يضرب بعضها رقاب بعض، وينهب بعضها أموال بعض، فإذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً، فألفت النظام والأمن والعدل، وطمحت إلى الرقي والحضارة، ووفرت منها بحظ واعف ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة، تتعاون على الخير والسلام، وترقية الحضارة العالمية، والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولا لظلمت الأمة العربية على جهلها، وغفلتها

210
وانتقاسها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة المجاورة آنذاك،
علماً بأن العرب لم يكن لديهم من مقامات الحضارة باع طويل،
ففني بدايةهم وظروفهم الجغرافية والاقتصادية والعلمية أسباب
عميقة في ارتكاز حضاراتهم وكل هذه الأمور لم تدع الفرصة
الكافية لإنشاء حضارة. على الرغم من قيام حضارات سابقة في
الجزيرة. واتصال العرب بالرومان والفرس، وإن الانطلاقة التي
شهدها المسلمون في إنشاء حضارتهم لا تقاس مع الماضي
والحاضر؛ وعملت على نقل أسسها إلى الأمم المتحاصلة؛ حتى
وصلت إلى أمم اليوم، وبذا يقول بيرفولت في كتاب بناء الإنسان
( إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن
إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ..).
وكان الله ألقى في رمال الجزيرة روح البحر ويعتها بأمره فكان
النبي هو نقطة المدب التي يفور البحر منها وكان المسلمون أمواجه
التي غلبت بها الدنيا وإذا أرسوا قواعد الحضارة الإنسانية.
فعجبًا من حضارة نشأت من عقيدة يشكي بها بعضهم والشيء
الأشد عجبًا أن تستمر هذه الحضارة لحقبة طويلة من الزمن وتثبت
كياها، وتعلن صوتها بلا منازع وبهذا يقول القرآن:
فقل أرأيت إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أصل ممن هو
في شقاق بعيد (فصلت : 52).
211
وعليه حضارة العالم اليوم بغربي وشرقي ترتكز على خلفيات وضعية مختلفة، فلم تستطع إياض الإنسان إلى سعادته وكان واقعنا العربي المتخلف الذي لم يرو حضارته حتى الآن وهو يبتعد عن هذه الحضارة الأصلية فنراه يعيش في مذلة وضياع وهذا ما صرح به أحد بناء الحضارة العربية الإسلامية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهم نرد العزة بغيره يذل لنا الله).

فأمتنا العربية إذا لم ترتكز في انطلاقتها التحررية الحاضرة على أسس علمية روحية معاً فلن يكتب لها الثبات والتقدم ...

وما بدأت أمة في طريق ما إلا بعد ارتكازها على نقاط القوى الخاصة بها، وحين أخص السمات العربية والشرقية عامة بالروح والتراث الإسلامي، فإن تخلت عنهما تخلت عن نفسها وبدأت من العدم، وسلكت درب المحال والضياع ...

ولن تصل إلى مقومات الحضارة الأصلية ...

٢١٢
الدليل العاشر
 التشريع القرآني والرسول

"إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس وحيثما وجدت المصلحة فلم شرع الله إلا فعلياً نظرًاً.

إن نظرة شاملة لتاريخ التشريعات العالمية توصلنا إلى الحقيقة التي لا بديل لها وهي كون التشريعات الإنسانية الكبرى خمسة فقط، وقد انعقد مؤتمر لاهي للمحامين وقد اشتركت فيه ثلاث وخمسون دولة من مختلف الأمم والأقطار وأرسلت كل دولة من الأساتذة المحامين لديها من يمثلها فيه وقد ظهر في ذلك المؤتمر أثر المحاضرات الإسلامية التي شرح نظريات الإسلام التشريعية وقدرته الحضارية من قبل لجنة التشريع المقارن واتخذت القرار التالي:

"نظراً لما في التشريع الإسلامي من مرونة، وما له من شأن هام يجب على جمعية المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليه".

ولا بأس أن ننقل كلمة العلامة الحقوقي عبد الرزاق السنوري

213

http://kotob.has.it
من مقال منشور في مجلة القضاء العراقية العدد الأول إذ قال في صدر بحثه عن صلاح الشريعة الإسلامية للخلود في ميدان التطبيق المدني:

لا أريد الاقتصار على شهادة الفقهاء المنصفين من علماء الغرب كالفقيه الألماني كوهار والأستاذ الإيطالي وليغشيرو والعميد الأمريكي ويكموور وكثيرين غيرهم ممن يشهدون بما انتزعته عليه الشريعة الإسلامية من مرونة وقابلية للتطور، ويبذلونها إلى جانب القانون الروماني، والقانون الإنكليزي، إحدى الشرائح الأساسية الثلاث التي سادت ولا تزال تسود العالم. وقَد أشار الأستاذ لامبير الفقيه الفرنسي المعروف في المؤتمر الدولي للقانون المقارن، الذي انعقد في مدينة لاهاي سنة 1932 إلى هذا التقدير الكبير للشريعة الإسلامية، الذي بدأ يسود بين فقهاء أوروبا وأمريكا في العصر الحاضر.

وقال العلامة الإفونسي سانيتلانا:

إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم إن لم نقل إن ما فيه كافي للإنسانية كلها. (1)

ولقد عقد البحاثة الأمريكي هوكنج أستاذ الثقافة الإسلامية في:

Avant projet du code curil et comurerceil tunisier (1)

264
كتابه "روح السياسة العالمية" فبعد أن تكلم عن أصول الفقه الإسلامي، قال: إن سبيل تقدم الدول الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعو أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم.

وأحياناً يتساءل بعضهم عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة، وإصدار أحكام مستقبلاً تتفق وما تتطلب الحياة العصرية. فالجواب عن هذه المسألة هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظام المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام الميل إلى استخدامها. وإنى أشعر بكونى على حق، حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض...

ويقول الدكتور أَنْتِيْكَو أنسباب توجين: إن الإسلام يمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل في خلال القرون، وببقى محتفظاً بكامل ما له من قوة الحياة والمرمونة. فهو الذي أعطي للعالم أرسخ الشرائع ثابتآً، وشريعته تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوربية...

(1) روح الدين الإسلامي 304.
(2) الإسلام وسياسة الخلفاء 145.

215
استعرضنا في بداية البحث ما قاله كبار الحقوقين في العالم عن تشريعنا المستقى من الدستور الخالد وهو القرآن الكريم .. الذي فيه ..

إن هذا القرآن يهدي للذين هم أتىهم بنعم (1)

ويبين أن أصول التشريع تعتمد على نتائج رائعة هي خلاصة ما يرى الإنسان العاقل؟ تصف محمد بأنه يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويبحرم عليهم الخباثة ويضع عليهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .


وقد أدرك علماء الشريعة غايات القرآن الكلية فقال الإمام الشاطبي في المواقف .. إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس، وحينما وجدت المصلحة فتم شرع الله ..

وقال الإمام ابن القيم الجوزي في كتابه الطرق الحكيمة .. إن الله سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات فإذا ظهرت آثاره العدل وأسفر وجهه بأن طريق كان فتم شرع الله ودنه ..

ولا بأس أن نذكر بعض القواعد الكلية في التشريع القرآني لنرى

(1) الإسراء/ 9

٢١٦
سموه وعظمته. قال الله تعالى:
ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى.
وقال أيضاً:
وأما جعل عليكم في الدين من حرج [الحج: 78].
وقال تعالى:
إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان [النحل: 106].
والقواعد المستنبطة من القرآن وأحاديث الرسول تدل على عمق الأصل في تثبيت القواعد الكلية للتشريع الخالد:
1 - (الضرر يُزال شرعاً) وقد استنبت هذه القاعدة وقواعد كثيرة من قول الرسول ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».
2 - مبدأ الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات.
3 - مبدأ الضرورات تبيع المحظورات.
4 - مبدأ البراءة الأصلية. هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً.
ومن ثم فإن المستعرض للتشريع الإسلامي في الجنيات والمعاملات والأحوال الشخصية والإرث، يجد تشريعاً متكاملاً.
يشكل لبنة خاصة بمبادئها وأسسها وفلسفتها للحياة والكون والإنسان.
ثم إنه لا يجد بينها تبايناً كما في التشريعات الوضعية التي تجمع من عدة تشريعات لتشكل تشريعاً محلياً.
وإنه لحري بنا إذا كنا طلاب حق ومعرفة، أن نتعمّق في معرفة هذا التشريع من كل جوانبه قبّل إثبات أو نفي قدرته على الخلوص... وهناك بحوث كثيرة في هذا الموضوع، قد أعطت خلاصة التشريع المقارن، وثبت في نهاية المطاف بأن التشريع القرآني هو من التشريعات الهامة التي استمتدت منها بعض التشريعات الحديثة بحوزتها وكل ما قاله علماء الحقوق في العالم عن الشريعة الإسلامية ما هو إلا غيض من فيض من الحقيقة الثانية لعظمة هذا التشريع الخالد.
ثم إن الإنسان المدرك لصعوبة إيجاد تشريع كامل من كل جوانبه ليقول معترفاً بعجزه:
إِن التشريع الإسلامي ما هو إلا تشريع وضعته اليد الإلهية ولم يكن للجهد البشري أي يد في وضع أسمه العامة الثابتة؛ وإلا لزالت قيمته بزوال عصره، وإذا قلنا بان اليد البشرية هي التي وضعته بشكل النهائي فما هو جوابنا للقائل كيف استشف وضعه الغيب، وهو في عصر لم تتجمع فيه تجارب الحقوقين بعد، بل كيف وضعه؟ وهو أمي عاش في كنف الصحراة حيث الفوضى.

218

http://kotob.has.it
المستشرية والقتال الدائر وشريعة القوي هي المسيطرة، وهنا يجثم العجب في قول من قال... إن هذا التشريع قد وضعته يد محمد... لا ثم ألف لا... إن واضح هذا التشريع الخالد هو خالق محمد، وهو الذي أرسله إلى الإنسانية الحائرة ليدلها على معالم الحياة العادلة، والسلام الدائم. وأني لبشر أن يكتب ذاك التشريع الذي يضاهي التشريع الذي كتبه فلاسفة الحقوق في السوربون وأكسفورد والمجامع الحقوقية العالمية...
الدليل الحادي عشر
المفكرون والرسول عليه الصلاة والسلام

إن أول العظام الذين لهم الدور الأول في بحثنا هم عظام الجزيرة الذين تلقوا هذه الدعوة وعاصروها إياس ظهورها، وفي ذروتهم أبو بكر رضي الله عنه وأجمل نجاح في ما قاله الرسول في الإسلام أبن بكر: "ما دعاوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت منه عندما كبيرة ونظرت تردد إلا ما كان من أبي بكر ماعكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه..."

وهذا هو أبو بكر الرجل العالم بأنساب العرب وأمثالهم وأخلاصهم وعاداتهم، المعالي عن الدنيا من الأمور فلم يشرب خمراً في جاهليته وما سجده لوثن قط... وهذه النفس الكبيرة التي ملكت الشمال الرفيعة، وجدت مفتاح شخصيتها بالإسلام، وبالعقل السليم وصارت إلى الحق وتعلقت به... والسؤال يطرح نفسه: لماذا أسرع أبو بكر إلى التصديق بالرسالة والرسول؟ هل قبل كل ذلك بلا محاكمة عقلية؟ هل استسلم للشخصية القوية التي كان يملكها محمد عليه السلام؟ وهذا الخبر بين لنا الجواب... جاء أبو بكر إلى الرسول يسأله: يا أبا القاسم: ما الذي بلغني؟
عنك ؟.. فسألة الرسول عليه الصلاة والسلام: وما بلغك عن
يا أبي بكر ؟.. قال أبو بكر: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله
وجبنت أنك رسوله ..

قال نعم يا أبي بكر إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني دعوة
إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً.. فما أبلأ أبو بكر أن قال:
والله ما جربت عليك كذباً، وإنك لخلق بالرسالة، لعظم
أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن مقالك، مدّ يدك فإني
مبايعك ..

إن الصدق والأمانة، وصلة الرحمة، وحسن الفعال، صفات
يفهما أبو بكر، لأنه يحبها، ويتصف بها ويبقى أهلها، وأمن
أبو بكر رضي الله عنه، وصار الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند
وعقيدة لها آثارها، في سلوكه وفكره وتحليله للأمور .. ثم بعد
ذلك انطلق ليلعن صدق إسلامه، وعمق ثقته بالرسالة الجديدة,
وما هي إلا أيام حتى يشاهد في نادي قريش يضرب ويغمى عليه,
ثم يستيقظ ليسأل أول ما يسأل عن أحب الناس إليه .. عن
رسول الله .. وإن الأشخاص المعاصرين، هم أكثر الناس معرفة
بحقيقة محمد، وأكثرهم أبو بكر رضي الله عنه، وهذا ما نشاهد
في بذله وتضحيته، ويقدم كل ماله للدعوة الجديدة، وسأله
الرسول، لماذا أبقيت لأهلك وعيالك ؟ فيقول: أبقيت لهم الله

٢٢١
ورسوله.. ولا يكتفي بذلك بل يصعد بما آمن على الرغم من الصعوبات التي تجابه الدعوة آنذاك. فيدخل في الإسلام كبار رجال قريش والعقلاء منها، وهذا يدل على عمق يقينه بصدق الرسول وعظمة الرسالة وهذا نشاهده عندما تستعرض أسماء من أدخلهم في الإسلام كأمثال عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من عقلاء قريش وأثريائها.. وعلينا أن نطرح سؤالاً:

ما الذي دعا أبو بكر لحمل هذه المشاقة.. موضحاً بنفسه وماله، صابراً على فتى قريش؛ ثم ما الذي أعجب به محمد؟.. علماً بأن محمداً كان إبان ذلك ضعيفاً لم يلبث أحد.. نعم إنه أعجب بالنبل والصدق والحق والخير، إنها بطولة الاستقامة والدعوة إليها، إنه عرف محمداً صغيراً وخبره كبيراً وصدقه وهو في سن الأربعين فأ най له أن يقف أمام هذا الجبل الشامخ من النور غاضباً بصره.. وإذا به يصبح اليد والقلب والعون لرسول الله ..

وإن في إيمان أبي بكر، وصدق يقينه، وكثرة تضحياته وثباته على الحق، وزهده في الدنيا، وطلب الحكيم للآخرة لدليلاً واضحاً لصدق رسالة محمد.. ولم يعرض تاريخ الحركات الإصلاحية، وتاريخ الأديان مثل شخصية محمد تلك الشخصية التي دانت لها الجبارة على الرغم من قوتها وسلطانها.. فلم يسعها

٢٢٢
لا أن ننظر إلى الرسول بعين ملؤها الإعجاب، ومن ثم الطاعة والتمتدة. وإن الناظر إلى جميع العاملين من الرعيل الأول في بداية انتشار الإسلام، يرى أن الكثير منهم كانوا يترقبون حالة أحسن مما هم فيها، ولكن أني لهم، حتى جاء الإسلام فصدقوا وأذنوا ومنهم عمر بن الخطاب وهذا الذي قيل فيه يسلم حمار الخطاب ولا يسلم عمر بن الخطاب، لما وجدوا من فتته وإيذائه للمسلمين، وعندما قرأ القرآن عند أخته، وهذا موجود في قصة إسلامه الرائعة، دهش من بلاغته، وأسولبه وعمق فكره، فما كان منه إلا أن ألقى عصا الترحال مستسلمًا للدين الجديد مخلصًا له، ولهذا قال كلامًا يدل على عمق يقينه بصدق الرسالة: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا أو حينا فقال عليه الصلاة السلام: "بل والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حيتم" فقال عمر: ففيمن الاختفاء، والذين بعثك بالحق لنخرجن!!.

وهذا سؤال يطرح نفسه ما هي الدواعي التي جعلت عمر يقبل الرسالة؟.. ويخلص لها؟.. علماً بأنه هو القربي من محمد، ومن أبناء قبيله ويعيش في كنف المدينة التي عاش فيها محمد، ثم لماذا أفقه نصف ماله!!.. كل ذلك يدل على صدق الرسالة والرسول، إن تصديق الكثير من عظماء الجزيرة وشعرائها وفسانها المخاوير بأن جميع العالم الإسلامي والاستمرار 273
على الاتباع والإخلاص إلى يومئذ هذا لهم الدليل القوي على صدق ما نقول ... وإن قصة ابن سينا مع تلميذته لهي قرينة على هذه القاعدة التي أسلفنا ذكرها وهي كما يرويها أحد علماء المسلمين المخلصين في دمشق :

يروى أن ابن سينا كان له تلميذه مخلص. وعندما شاهد من أستاذه العلم والذكاء الحاد، والذاكرة القوية، وكثرة الخبرة بل المعرفة بجميع أنواعها من فلسفة وطب وتاريخ وفقه وجغرافيا ورياضيات وفلك ... قال له ذات مرة، يا أستاذ: لماذا لا تدعي التوبة وقد ادعاها من هو أقل منك علمًا ومعرفة. فلم يجب ابن سينا تلميذه شيئاً، بل تركه ليعلم ما وجد علماً لا يمساه. التوبة اصطفاء من الله تعالى ولا تنال بالجهاد والاجتهاد. ومرت الأيام وقد ازداد إعجاب التلميذ بأستاذه العلامة. وذات ليلة كانا نائمين في بيت معاً، والوقت شتاء، والثلج والبرد قد خيم على الأرجاء. فنادي الأستاذ تلميذه ليجلب له كأسًا من الماء بشدة. فقال التلميذ: لا أستطيع لأنني أخشى من البرد، وحاول الأستاذ مرة ثانية وثالثة والتلميذ يؤكد على أستاذه: سامحني. ياً أعتني من هذا العمل. وهم في غمرة السؤال والجواب وفي منتصف الليل وما هي إلا دقائق إذ سمعوا صوت المؤذن يؤذن لقيام الليل، وألح الأستاذ في طلحه إلحاحاً شديداً. فلم يجد الأذن الصغيرة من تلميذه، وهنا قال الأستاذ له: أتسمع صوت

224
المؤذن، قال نعم. قال الأستاذ: كم من الفرق بين بعثة محمد ﷺ وحياة هذا المؤذن، قال كثير، فقال الأستاذ: إن هذا المؤذن قد آمن بالرسول بعد وفاته بمئات السنين، وخرج في الشتاء القارس، وترك الفراش لإيمانه بالرسول الصادق، وأتى أشد الناس معرفة بي، وألقى الناس في صحبتي وقد طلبت منك كأس ماء فلم تطعنني فكيف تطلب مني إدعاء النبوة.. يا أحقق!! وقال الأستاذ معلماً تلميذه: إن النبي الصادق هو الذي ينتقل صدقته من سلوكه إلى من حوله، ويستمر صدقته كامناً في النفس، ينتقل عبر الأجيال دون أن يبتعد من صدقته شئً

ولا بأس أن نقول بأن العلماء والمثقفين والراعين منهم، بشكل خاص في عصرنا الحاضر قد ازدادوا تمسكاً بهذه الرسالة لأنهم يجدون في كل يوم دليلاً جديداً على صدق إلهي الرسالة، وصدق مصدرتها، وصدق المرسل بها. وبعد أن عرضنا فكرة موجزة عن بعض المفكرين في الجزيرة وغيرها علينا أن نلقي الأضواء على خلاصات ما قاله كبار المفكرين العالمين في الرسالة والرسول...

ولتصفح ما قالته الدكتورة لورافيشيا فاغليري أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا، وقد

(1) من محاضرة الثلاثاء لسماحة الشيخ الدكتور أحمد كفتارو.

225
ألفت كتاباً سمته باللغة الإيطالية:

Apologeta dell' isiamismo

وترجم إلى العربية باسم "دفاع عن الإسلام" وقد قالت بالحرف الواحد ص 14:

فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرره قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبلبه الزمان، والذي لا يزال إلى اليوم كعهدته يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنباء حملة الشرائع، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهوا مباشرةً من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهما السابقة من غير ريب.

وتقول: إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطة، من خلاله أنتهت منتصف بيئين مطلق أنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ليس بالطويل أكثر مما ينبغي وليس بالقصير أكثر مما ينبغي، أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أي نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي، إلى أن تقول: كيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أببات لا ينم أي منها عن أدنى موهبة شعرية...

226
هذه خلاصة بحثها في دراستها الطويلة عن القرآن وعن الرسول
وما هذا إلا إقرار بالحق الواضح الذي لا ليس فيه، فلينصف العقلاء
هذا النبي ولا يتكبروا في إقرار الحق.
ولا بأس أن نورد ما كتبه السير وليم موير في كتابه «حياة
محمد» يقول عن القرآن وصدق نصوصه ونسبته ومصدقته:
وكان الوعي المقدس أساس أركان الإسلام. ويعني به القرآن، والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن، ظل
أربعة عشر قرناً كاملاً بنصه وهذا مبلغ صفائه ودقته. ثم يقول:
mحتويات القرآن ونظامه تنطق في قوة بدقه جمعه. وما رأيك في
الاستنتاج الرائع الذي وصل إليه عالم متعصب لديه يحاول أن
يحقق نقداً لمحمد ولكتابه ولكنه بعد قراءة مستفيضة خضع للحق
وأنصف القرآن بأنه لا نظير له ولا يمكن ليد بشيرة أن تأتي مثله وهو
كتاب خالد طوال الدهور على الرغم من تطور الفكر والحياة
والتصورات...
والكاتب ر.ف بودلي يدلي بخلاصة مطالعاته في كتابه «حياة
محمد الرسول» قائلاً: فعلى الساخطين من محمد في غار حراء أن
يسخرؤ من موسى أيضاً وهو على طور سيناء ومن عيسى على تلال
الجليل. لقد قصوا نبأ تلك الأشياء في بساطة وحسن نية، وإن
هذا لينطبق على محمد بن عبد الله والملك جبريل، ولو عاش في

227
القرن العشرين .. لطابقت نظرياته نظريات المتمدنين ولكن رائدهم على وجه التحقيق ..

وقال عن القرآن في كتابه (حياة محمد الرسول) ص 142 ..
ولهذا الكتاب سحر خفي ، له تأثير عجيب في العرب ، فقد حول الرعاة والتجار والبدو والبسطاء إلى مقاتلين وبداية إمبراطورية ، ومؤسس مدن كبغداد وقورطبة وبلهدي ، وإلى علماء وحكماء ورياضيين .. وإن هذا الكتاب ولا شك هو الذي عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالماً أوسع ممن العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم ، وقد فعلوا ذلك في عشرين السنين ، واستغرق في ذلك من سباقهم قرونًا ، ومع أن الفينيقين قد ذهبوا بعيداً عن أوطانهم وكونوا أنفسهم حينما كانت التجارة .. ورحل اليهود بعيداً ولكن مهاجرين مضطهدين أو أسرى ، فهؤلاء العرب بقرآنهم قد أنوا إلى إفريقيا ثم إلى أوروبا ملوكاً .

ويقول الشاعر جوته الذي أسلم في نهاية بحثه وقال : كلما اقتربنا منه (القرآن) تجد الفنون تيجذبنا بالتدريج ويثير فينا الدهش ثم يدفعنا إلى الإعجاب به في النهاية ..

فالشاعر الألماني الكبير يقص لنا دور التعصب الذي تربى عليه في الماضي مما جعله يشعر بالانتعاض كلما اقترب من تلاوة القرآن ، ولكن حبه للحقيقة ؛ وحبه عنها جعله يقرأ ويسأل عن 228
القرآن: حتى وصل إليه، فإذا به يجد الحق عنده فأمان به وأسلم
لمبادئه بل دوّن قصيدة طويلة يصف بها رسول الله وعظمته،
والقارئ في كتاب "العواطف كأساس للحضارة" للكاتب الأوروبي
(ج. ه. دينسون) ص 24 يرى بحثا مستفيضاً عن عظمة الرسول
في تغيير العالم وإصلاحه يقول: ففي القرنين الخامس والسادس
كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى، لأن العقائد
التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم
ما يعيد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى
التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة، مشرفة على التفكك،
والانحلال، وإن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه
من الهمجية، إذ القبائل تتجارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام،
وكان المدينة شجرة ضخمة مفرعة امتد ظلها إلى العالم كله واقفة
تتربع وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا
الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه يعني
محمدًا ﷺ ﷺ، وهل بعد هذا القول قول لمنكر أو مكابر.

ومما قاله الدكتور سدني فيشر أستاذ التاريخ بجامعة أوهيو
الأمريكية في كتابه الشرق الأوسط في العصر الإسلامي وقد بحث
فيه عن القرآن فقال:

إنّه كتاب تربية وثقافة، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفراعنة.
والشعائر وإران الفضائل التي يبحث عنها المسلمون من أجل الفضائل وأرحمها في موالين الأخلاق وتنتج هديأة الكتاب في نواهيه كما تنتج في أوامره ثم يختم كلمته قائلًا:

إنا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع في شؤون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية لم يكن في وسع أحد إلا أن يعتبر مهتمًا عليه السلام نبأً متعلماً جداً ومصلحاً موفقاً...

وقال الكاتب الأوروبي: الدين الحق الذي يساير المدنية هو الإسلام، وحسب القرآن وما فيه من نظريات علمية وقوانين وأنظمة، لربط المجتمع فهو كتاب علمي اجتماعي تهذيلي خلقي.

ومنقول: فأخي لرجل أمي أن يأتي قبل أربعة عشر قرناً نظريات علمية وقوانين وأنظمة رائعة ثبت صلاحيتها على الرغم من تطور الحياة وترفعها عن النظريات القديمة. وفي هذا البحث نورد ما قاله الأستاذ ليبولد فايس «محمد أحمد» في كتابه ( الإسلام على مفترق الطرق) فقال: لو كان الإسلام وضعة فكر على مسيرة التقدم الحضاري لمضى ثم جاء فكر جديد يعلوه شائناً ويتفرع عنه منزلة ولكن هذا لم يتم ... ثم يقول: يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات

(1) روح المدنية للغلافان: ص 235
الإنسانية وجميع المدنات أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية، إنها تمر في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها، إنها تولد ثم تشب وتنتفض ثم يدركها البلي في آخر الأمر، فالثقافات كالنباتات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً. تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخرى ولدت حديثاً؛ ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية مع نموها الحاضر قد استطاعت أن تشب عن الإسلام. إنه لم يستطع أن يتبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا «الأمة». إنها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهلها فعلاً على مثال ما تم في النظام الإسلامي، إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي وسعادته...

وإذن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسالها، أنها لا تسمع الصوت الأولي...

وكتب المؤرخ الأمريكي «واشنجنون أرفينج» في شخصية الرسول فقال: هل كان ثرياً؟ لا بل كان فقيراً، إلا أنه تزوج خديجة فأصبح على جانب من الثراء، وجادل من أجل تنمية ثروته، هل كان بارزاً؟ نعم كان له شأن في وطنه، فقد كان رجلاً...
ذكياً وأميناً .. هل كان قوي النفوذ ؟ نعم .. فقد كانت أسرته تقوم
بتساقطة الكعبة وتتولى شؤون مكة تلك المدينة المقدسة ، ولذا كان
مركزه وما انتصف به من أخلاق كريمة يؤهلانه ليكون موضع الثقة .
ولكن حينما دعا محمد إلى الإسلام اصطدم بأسرته وقبلته وجر
على نفسه عداءها فقد كان تحطيم الأوران يقضي على سيطرة قريش
على الكعبة ، وما تستفيده من قدوم الحجاج . لقي الرسول من
أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء ، وبذل عدة تضحيات ، فقد شك
الكثير في صدق دعوته ، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً
كبيراً . وتعرض خلال إبلاغ الوعي إلى الإهانات والاعتداءات
والاضطهادات بل اضطر إلى أن يترك وطنه ، ويبحث عن مكان
يهاجر إليه فقد كان في الأربعين من عمره حينما نزل عليه الوعي
وعانى كثيراً سنة بعد أخرى في نشر الإسلام بين أفراد قبيلته ؛
وحينما هاجر من مكة كان قد قضى ثلاثة عشر عاماً . فتحول من
تاجر ثري إلى مهاجر معدم ، وحينما وصل الرسول إلى المدينة
المنورة لم يكن يفكر في القوة العظيمة التي كانت تنتظره ، فقد كان
تفكيره منصرفاً إلى بناء مسجد يستطيع أن يصلي فيه ويشر فيه
دعوته ، وكان كل أمله أن ينشر الإسلام في جو من الهدوء
والسلام .

حتى قال :

٢٣٢
وكان الرسول في كل تصرفاته مترقىً ذاته رحيمًا. بعيدًا عن التفكير في الثراء أو المصالح المادية. فقد ضحى بالمادية في سبيل الروحانيات (1).

وقال الدكتور جوستاف لويسون في كتابه حضارة العرب: إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علم ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. وقال أيضاً: وإذا قيست الرجال بجليل أعمالها كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ (2).

وقال الدكتور ليتز عن الرسول عليه السلام: إنني لأحرؤ بكل أدب أن أقول: إن الله هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ولو كان يوجي إلى عباده فدين محمد هو دين الوعي ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوي وسائل التمييز بين الخير والشر، ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام فرسالة محمد هي هذا الإلهام (3).

وقال البروفسور بورسوث سميث في كتابه:

Mohammad and Mohammamaanism

(1) كتاب حياة محمد واشنطن آرنج. ص 14.
(2) الإسلام يتحدى ص 34.
(3)
لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته ما ادعاه في بداية رسالته وآني لأجدني مدعوًا إلى الاعتقاد بأن كلًا من الفلسفة العليا والبيروقراطية الصادقة سوف تضطران يومًا ما إلى التسليم بأنه كان نبيًا صادقًا من عند الله (1) .

وقال البروفسور ستوربارت: إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد . ويفضل قائلاً: ألا ما أقول لا اعتقله من اليوسف العالية وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية ، فلن نجد فيه اسمًا منيرة هذا النور ، واضحاً هذا الوضوح غير اسم النبي العربي .

وفي دائرة المعارف البريطانية: لقد صادف محمد النجاح الذي لم يلبث مثله نبي ولا مصلح ديني في زمن من الأزمنة .

ويقول بورسوث سميث: إن محمدًا بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق .

ولا يكف أن نذكر ما جاء في وصفه الرائع ما يدلنا على عظمةه وقالوا: إنه كان واع Displays المزاح ، دائم الفكر ، ليست له راحة طول السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، ليس الجاف ولا المهين .

الإسلام يتحدى ص 176  .

٢٣٤
يعظم النعمة وإن دقت، لا يدم فيها شيئاً، ولا تغضب الدنيا ولا ما كان لها فإذا تُعدي على الحق لم يقم لغضب شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، ومن رآها بديعة هابه، ومن خالله معرفة أحبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يطوي عن أحد من الناس بشره، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، يحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد، له نور يعلوه كأنه الشمس تجري في وجهه، لا يؤس راجيه ولا يخيب سائله، ومن سأله حاجة لم برده إلا بها أو بمسور من القول، أجود الناس بالخير (1).

ولو أردنا أن نكتب كل ما قيل عن الرسول وصدق رسالته من أقوال العلماء لما اكتفينا بمجلد بل ومجلدات وترك هذا للقارئ ليطلع أيضاً على ما قيل عن هذا الرسول العظيم ...

وفي كتاب للبروفسور عبد الأحد داود عنوانه محمد في الكتاب المقدس يكرس أكثر من مائتي صفحة للحديث عن صفات الرسول محمد في العهدين القديم والجديد ويوضح ذلك من خلال

(1) جمعت من روايات مختلفة.
دراسة متعمقة للغة الكتاب المقدس ولنبؤات الأنبياء التي تبشر بقدوم هذا النبي العظيم.

يقول في الصفحة 82: أقام دين الإسلام الذي وحد في أخوة حقيقية جميع الأمم والشعوب التي لا تشرك بالله شيئاً. إن جميع الشعوب الإسلامية تطيع رسول الله وتحبه وتحترمه لأنه مؤسس دعائم دينها ولكنها لا تحبه أبداً ولا ترفعه إلى مقام التقديس والتآليه. لقد سحق محمد الوجود اليهودي المتمثل في قرينة وخبر ودم حصولهم وقلاعهم ووضع نهاية لنفوذهم هناك (1).

ويقول أيضاً 1 واجب محمد بالقوة العسكرية، والقرآن يحل محل الصولجان اليهودي القديم والبالي والشريعة القديمة غير العملية التي تقوم على التضحيات والرهبة الفاسدة، ونادى محمد بانتهى الأديان وهو توحيد الإله الحق، ووضع أفضل العملية والضوابط الأخلاقية والسلوكية للبشر (2).

وقبل أن يرسل الله محمدًا بالدعوة إلى الإسلام وإزالة الودية الأمر الذي حققه بنجاح كان أهداً وأصدق رجل في مكة ولم يكن

(1) عبد الأحيد داود. محمد في الكتاب المقدس ص 82 - 83 طبعة الأولى 1985 - قطر.
(2) المصدر نفسه.

226
بالمحارب أو المشرع، ولكن بعد أن تحمل رسالة النبوة أصبح أفصيح المتكلمين وأشجع العرب، وكان يحارب الكفار وسيّده ليس لمصلحته الشخصية ولكن من أجل مجد الله وقضية دينه وهو الإسلام، وقد عرض الله عليه مفاتيح كنور الأرض ولكنه رفضها وعندما توفي كان فقيراً).

إن الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدمها محمد خالصتا الله ولصالح البشر لم يقدمها أي مخلوق من عباد الله ملكاً كان أو نبياً.

أما خدمته لله فإنه اقتلع جذور الوثنيّة من جزء كبير من الأرض، وأما خدمته للإنسان فقد قدم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشاده وأمنه، وقد أخذ الصولجان والشريعة من اليهود فخصص الصولجان وبلغت شريعته درجة الكمال، ولو أتيح لمحمد أن يظهر ثانية في مكة أو المدينة هذه الأيام لقوبل من المسلمين بنفس المحبة والطاعة التي قبول بها أثناء حياتها في هذه الدنيا.

وسيشاهد بسرور عميق أن الكتاب المجيد الذي تركه لم يزل كحاله الذي أنزل عليه دون أقل تغيير وأنه يقرأ ويرتل كما فعل أصحاب محمد بالضبط وسيكون مسراً للتهيئة المسلمين على

(1) عبد الأحد داود. محمد في الكتّاب المقدّس ص 82 - 83 طبعة الأولى 1985 - قطر.

337
ولائهم لديه ولتوحيدهم الله وأنهم لم يجعلوا منه إلّا أو ابن إلّه) (1).

ويقول في مكان آخر من الكتاب ( أرجو أن يسمح لي غير المسلمين ب تقديم نصيحة من هذه الرؤيا العجيبة التي رآها دانيال. فإن عليهم أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن الله وحده هو الإله الحق وأنه سبحانه مطلع على كل من خالف أمره وانحرف عن سبيله وأن المسلمين وحدهم هم الذين يعرفون بصدق ووحدانيته المطلقة ويحظون بنعمة نبّوّة محمد ﷺ سيّد الأنبياء الذي أرسله الله تعالى، والذّي قربه إلى عرشه جلّ شأنه ).

وحين يناظش البروفسور نبوءات أنبياء بني إسرائيل يصل إلى نتيجة واضحة ترى أن كل الإشارات التي أشاروا بها عن نبي يأتي يتميز بصفات ليست في غيره تنطبق على خاتم الرسول محمد ﷺ.

يقول البروفسور عبد الأحد ( نبّوّة داود تقول : قال يهوه لسيدي، اجلس عن يميني، إلى أن أفعل، أعداءك مسداً لقدميك، فهذا الشهد الذي قاله داود مكتوب في المزمور 111 واقتبسه مثا 22/44 ومرقس 12/36/37 ولوقا 2/42 وفي جميع اللغات فإن الأسمين الموجودين في البيتين الأولين من الشهد

(1) عبد الأحد داود . محمد في الكتاب المقدس ص 82-83 طبعة الأولى 1985 - قطر .

238
يترجمان هكذاٌ "قال الرَّب لِسِيدِيٍ" بالطِّبْعِ فإنَّ كَلِمَةَ الرَّبِ الأولٍ 
"Lond" تعني الله و "كَلِمَةُ سِيدِي الثانِية" تَعْنِي أَيْضاً اللَّهٌ.

لا ريب في أنَّ عِينَ دَانِيالً المتبَتَّهِ التي شاهدت في رؤيا بِرأْشا
ابن الإنسان العظيم الذي كان محمّداً كَانَ هِي نَفسَ العِين المتبَتَّهِ
لِداوَدٍ، كان هذا الرجل الأكثُر تَمْجيِداً وحمَداً بين البشر هو الَّذي
رَآهُ النبي أيوب١٩٥٥ كمخلص للناس من سلطنة الشيطان.

فَهِلُ كَانَ محمّد ذلك الذي قال عنه دَاوَد سِيدٍ أو أَدونِي؟

إنَّ الحَجِّيجَ التي تَوِيد محمّداً الموصوف بأنه سيد المرسلين
وهي نَفس أَدونِ أو سيد الأَنيَبى حَجِّيج قاطعة وهي من الوضوح كَما
جاءت في العهد القديم بحيث لا يَسعُ المرء إلا أن يَدهَش من حِجل
أولئك الذين يرفضون أن يفهموا أو يَذْعَنوا للحق.

١ - إن أعظم نبي وسيد ( أَدونِ ) في نظرة الله والناس ليس بفاتح
عظمَ وَلا مَدُم للبشرية ولا منزَعِل يقضي حياته في كهف أو حجَّرَة
صغيرة بِتَعْبِدُه من أجل أن يخصُّ الفاَّل فيما يَقتِله فقط، ولكِنَّهذا الَّذِي
يقدم مزيداً من الخير والخدمة للبشر بأن يقربهم من ضوء المعرفة
بِالله الحق الأَحد، وبالقضاء المبرم على قوة الشيطان ونصبه
البغيضة ومؤسسته الشريرة. لقد كان محمّد هو الَّذي دَق رأس
الحَيَة وَهَذَا هو السبب الَّذِي من أجله يَطلق القرآن على الشيطان اسم
إيليس أي المتكسر أو المسحوق. لقد طَهِر محمّد الكعبة وكل بلاد
العرب من الأصدام وأخرج العرب من ظلام الجهلة والوعي إلى نور السعادة والدين والقوة، وقد نشر ذلك النور في كافة أرجاء المعمورة وإن الأعمال والإنجازات العظيمة التي قدمها محمد في سبيل الله لا يدانيها ولا يضاهيها شيء.

إن الأنباء والصالحين والشهداء هم جند الله الذين - بدون شك - ينتظرون تحت قيادة زعيمهم محمد في مواجهة قوى الشيطان.

إن محمدًا ليس سيدًا لذاود فحسب بل إنه سيد الأنباء بلا استثناء حيث أنه طه فلسطين وسائر الأقطار التي زارها إبراهيم من الوثنيّة ومن نير الدخلاء.

۲ - بما أن عيسى المسيح نفسه يعرف أنه لم يكن سيد داود وأن المسيح لم يكن يتحدر من نسل داود فإنه لم يبقى سوى محمد من بين جميع الأنباء سيدًا لذاود وعندما تأتي إلى المقارنة بين الثورة الدينية المحمودة التي حققها ابن إسماعيل النبي في العالم وبين الذي حققه آلاف الأنباء مجتمعين نخرج بنتيجة تفرض نفسها وهي أن محمدًا وحده هو الذي يمكن أن يستحق لقب أدون السيد المتميز.

۳ - كيف عرف داود أن يهوه قال لأدوم اجلس أنت عن يميني حتى أجعل أعداءك كرسياً تستريح عليه قدماك وحتى سمع داود

٢٤٠
كلمة الله هذه؟

إن المسيح نفسه يعطي الجواب أي أن ( داود كتب هذا بالروح ) أنه رأى الأدون محمدًا كما رآه دانيال وكما رآه آخرون كثيرون. بالطبع هذا السر اجلس أنت عن يميني مخفي عنا ومع ذلك نستطيع أن نحزر بالتأكيد أن هذا التكريم الرسمي له مع شرف الجلوس عن يمين عرش الله وبالتالي رفعه ليس إلى منصب سيد الأنبياء فحسب بل وسيد الخلق كلهما، قد حدث ليلة المعراج الشهيرة إلى الفردوس الأعلى.

ف- إن الاعتراف الرئيسي الوحيد على رسالة محمد السماوية وتفوقه هو تنديده بتعاليم الثالوث ولكن العهد القديم لا يعرف إلهاً سوى الله ولم يجلس سيد داود على يمين إله ثلاثي ولكن على يمين إله واحد. ومن هنا فإنه لم يوجد بين الأنبياء الذين آمنوا بالله وبدلوا في سبيله شخص عظيم بهذه العظمة قدم خدمات جليلة في سبيل الله والناس كما فعل محمد عليه صلوات الله وسلامه (1).

ويقول في موضع آخر : لقد قدم محمد إلى الدنيا كتابًا مقدسًا لا يبارى وققدم دين الإسلام الذي هو أكثر الأديان عقلانية وبساطة ونفعًا وكان وسيلة لبداية الملايين والعديد من الأمم الكافرة في كافة

(1) عبد الواحد داود : محمد في الكتاب المقدس صفحة 113 - 114 .

241
أرجاء المعمورة ورحَّلها كلها إلى أخوة عامة متحدة تكون مملكة الله الحقيقية والرسمية على الأرض التي نادي بها عيسى ويوحننا المعبدان.)

وتحت عنوان النبي الذي يبشر بالإسلام يقول البروفسور عبد الأحمد: إن دين الإسلام أي الإسلام وحده هو القادر وحده على تحديد خصائص ووظيفة النبي الحقيقي أو الإمام أو أي قائم بأمر الله في الأرض. إن الله واحد ودينه واحد ولا يوجد دين آخر في العالم كالإسلام يبني ويدافع عن هذه الوحدانية المطلقة لله.

ويقول في الصفحة 123: إنها لمعجزة فريدة حقًا في تاريخ الأديان أن يطلق اسم محمد من بين جميع أبناء آدم على نجل عبد الله وآمنة في مدينة مكة لأول مرة ولا يمكن أن تكون هناك حيلة زائفة أو محاولة ما أو تزوير ما في هذا المجال لأن والده وأقاربه كانوا وثنيين ولم يعلموا شيئاً مطلقاً عن النبوءات العبرية، وأن اختيارهم لاسم محمد أو أحمد لا يمكن تفسيره بأنه كان على سبيل المصادفة أو حدثًا عرضياً.

أما الدكتور موريس بوكاي فقد تحدث في كتابه المشهور القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم عن الرسول العربي محمد

في الكتاب المقدس صفحة 122.

(1) عبد الأحمد دارو: محمد في الكتاب المقدس صفحة 242
قال فان:\ يزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية في التاريخ تعيد أقوال التوراة والإنجيل مثل هذا الموقف لا يقل استخفافاً عن ذلك الذي يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خذع معاصريه باستلهامه للعهد القديم في أثناء تبشيره.

ومع ذلك فهكذا في الغرب يحكم على محمد في أغلب الأحيان ويزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً في اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطي عن نفس الحدث روايات مختلفة. لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات ثم يعلنون أنها متماثلة وبالتالي يحاشون عن تناول المعارف العلمية.

ثم يقول: كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟

ويقول فولتير: لقد نسبنا إلى القرآن كثيراً من الأباطيل ولكنه في الحقيقة براء منها فالقُسُس صنفوا كتبًا كثيرة في ذم المسلمين،

(1) موريس بوكاي. القرآن والتوراة والإنجيل والعلم صفحة 149 - 150 .

جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس 1982 .

٢٤٣
وكتبت كتابنا وهم لا يحصرهم العدّ مؤلفات واسعة، استطاعوا بها أت يجعلوا النساء من حزبهم ذلك بأنهم نقلوا إليهنّ بأن مدّداً يعتبرهن حيوانات ذات ذكاء وأن الشريعة الإسلامية لا تراهن إلا إما لا يملك من دنياهن شيئاً ولا حظ لهن في الحياة الآخرة، ويقرر فولتير وديهي أن هذا الكلام باطل. إن الذين يعودون إلى القرآن أنه يخفض من مقام المرأة إنما يعودون إليه ذلك بهتناً وكذبًا(1).

وفي مقام آخر نسمع رأي المستشرفة لورافيشيا فاغليري وهي تتحدث فيه عن الموقف الذي كان يواجه الرسول ﷺ حين الإذن بالقتال وبعد الهجرة فتقول: (كان من دأب الرسول بوصفه نياً موعىّ إليه أن يخاطب المكّيين ويحدثهم عن رؤاه السمادية التي طلبت إليه أن يصبر على الأذى والتي أثارت سخط قريش حتى إذا اتخذ القرار العسير بالهجرة إلى المدينة، وبذلك أصبح محرر صراع سياسي كان عليه أن يختار بين الموت على نحو مذل، وهو أمر لا يتفق مع رغبات الله، وبين القتال لإنقاذ نفسه وجماعته الصغيرة من الهلاك. كان الصراع يدور بين الفوضوية ومادية الوثنيين المثيرين، ومخاصمات وأكاذيب اليهود غير المتسامحين، على الرغم من تحضرهم البعيد من ناحية، وبين مثل

(1) فولتير. الهلال والصليب ص. 89 – 90  

244
أعلى رفع في التجدد الديني والاجتماعي من ناحية ثانية ، ذلك كان
المثال الأعلى الذي أراد محمد أن يحققه بأي شكل قاتل الرجل
الوديع ضد الطرسة والطغيان ، أو قاتل الرجل الذي لا يرغب
في الحرب ، ولكنه مكره على منازلة أولئك الذي أصرُوا على
تدميره بالقوة )١(.

ويقول توماس كارلايل في كتابه الأبطال حين الحديث عن
النبي ﷺ : ( إن اتِهامه بالتشويه على السيف في حمل الناس على
الاستجابة لدعوته سخيف غير مفهوم ، إذ ليس مما يجوز في الفهم
أن يشير رجل سيفه ليقاتل به الناس ، أو يستجيبوا لدعوته ، فإذا
آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائفين
مصدرين ، وعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا
عليها )٢(.

وقال الأستاذ رشيد الخوري ( فلا شكسبير ولا هوجو
ولا تولستوي ولا غيرهم من أمثالهم يطولون مهما اشترأتهم
إلى الدرجة السفلى في تلك المنصة العالية التي يقف عليها
محمد بن عبد الله وقفة سيد الأنبياء وواحدها ) .

(١) دفاع عن الإسلام لورافيشيا فاغليري . ترجمة مثير البعلبكي . دار العلم
للملاليين بيروت ١٩٦٣ ط ٢ ص ٣٠ - ٣٣)
(٢) المستشرقون والإسلام زكريا هاشم ص ٤٣ - ٤٤ .
وجهاء في كتاب هوفمان الإسلام كبديل ما نصه في ص ۲۵۰ : 
( أعتنق الإسلام اقتناعاً مباشرةً حوالي ثمانية آلاف ألماني وألمانية وبعضهم جذبته إلى الإسلام سماحته ورسالته 
ذكر محمد بن عبد الله كذلك أن وحدانية الله المطلقة كانت الدافع المباشر لإسلام كثيرين فضلاً عن وضوح الإسلام والأخوة التي يشعر بها المسلم الألماني خالصة لوجه الله ...).
قال بودلي في كتابه محمد :
( إنني أعتقدم أن محمدًا عظيمًا العظمة الكافية).
وقال : ( أكان في مقدور رجل، ما لم يكن ملهماً، أن يأتي إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية؟ ألا تتعكس سخرية معادي الإسلام عليهم؟ وكيف يترك رجال عقيدها ازدهرت ونمت بعد موتة؟ ... إن عدد معتنقي الإسلام ليزداد اليوم بمقدار ربع مليون في كل عام؟ وهذا دون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام؟)
ما ورد في إنجيل برنابا ( وهو القديس الممتلي من الروح المقدس تجله الكنيسة وتعظمه).
ورد في (۳۹ : ۱۴) فلما انصب آدم على قدميه رأى في الهواء 
(۱) ص ۳۹ الرسول حياة محمد رف. بودلي.
كتابة تتألّق كالشمس نصها: ( لا إله إلا الله و محمد رسول الله )
وفي الإصحاح الرابع والخمسين يتكلّم عن يوم الحشر إلى أن يقول:
» 9 ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون:
( اذكرنا يا محمد ) ".
وفي ( 97 : 14 أجاب يسوع إن اسم حسباً عجب » إلى أن يقول ( قال الله اصبر يا محمد ) ... 17 إن اسمه المبارك محمد ".
وفي ( 133 : 7 أجاب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلّم عنه الذي سيأتي إلى العالم ؟ ( 8 أجاب يسوع بابتهج قلب: إنه محمد رسول الله ».
قال أحمد فارس الشدياق: ( إن النبي محمد ﷺ تحدى بالقرآن فأعجز أساطين الفصحاء ، وأعيا مقاويل البلغاء ، وأخسر أسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان ، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان ، وفي أمة كانت مواهبها محشورة للتتفوق في هذا الناحية !!!
وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزاً وأفحش عياً بل: أين محاكاة البيغاء من فصاحه الإنسان !!!!!!

۲۴۷
وقال عنه المستشرق جب (أحمد فارس الشدياق كان أحد الأبطال العظام المدافعين عن الإسلام).

ويقول الشاعر إلياس طمعة:

(رغم ما واجه القرآن من التحديات فإنه لا يزال واقعاً في عاليه، يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وزجاء، ويرف جدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضاً طرياً يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته:

قل لئن اجتمعت الإنس والجني على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهراً.

وما زال يدرس الإسلام حتى قال: (إذا لم تكن عروبة إلا بالإسلام، فإني عربي مسلم مؤمن، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) ثم سمي نفسه (أبا الفضل الوليد بن عبد الله بن طمعة).

ويقول موريس بوكاي: «لكل من يشرع في دراسته (أي القرآن) بموضوعية، وعلى ضوء العلوم طالعه الخاص، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة بل أكثر من ذلك يكشف القاري فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً

٣٤٨
في عهد (محمد ﷺ) قد استطاع أن يألَفها، وعلى هذا فالمعارف
العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا
تفسير صحيح حتى الآن».

يقول الكونت هنري دي كاستري:

يرد فيها على كل من قال بأن دراسته للإنجيل والتوراة هي
أسس دعوته فيقول ( أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا
الاعتقاد وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو
قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب الثلث، وهو مناقض
لفطرته، مخالف لوجوداته منذ خلقه). فهو يظهر هذا الاعتقاد بواطمه
دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على
صدقته في رسالته وأماته في نبوته.

ثم يتابع فيقول (والعقل بحاجة كيف يتأتي أن تصدر تلك الآيات
عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني
الإنسان عن الإتبان بملتها لفظاً ومعنيا).

ويقول تولستوي (ذالك الأديب والكاتب الروسي الكبير):

لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين
خدموا البيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة

(1) ص 14 من كتاب محمد رسول الله ترجمة الدكتور محمود عبد الحليم.

٢٤٩
يقول آرتين دينه في نهاية كتابه محمد رسول الله الذي قام بترجمته الدكتور عبد الحليم محمود وهو آية من آيات العرض الفكري الجاد لحقائق الرسول والرسالة قال في ص 283 2 فدين الرسول محمد قد أكن من الساعة الأولى لظهوره ، وفي حياة النبي عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومنكان ، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل ، إذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، أو بالنظر لمذهب الصوفية يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً ، سواء في ذلك الأوروبي المتحضر والزنجي الأسود من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ، ثم يزيد عن ذلك بالنسبة للزنجي انشاله من عبادة الأوثران ».

ومما يجب أن يعرفه القارئ أن آرتين دينه أسلم وسمى نفسه سليمان إبراهيم واشتهر باسم ناصر الدين والإسلام . وكتب رسالته اسمها ( أشعة خاصة بنور الإسلام ) وله مؤلف هام ( الشرق كما يراه الغرب ) ودفن بالجزائر .
يا عرب يا مسلمون

لقد كان الرسول ﷺ الشمس الوضاءة في تاريخ العرب، والقبس المنير في دنيا وجودها خلال عصورها المختلفة، والبحاثة المطالع لواقع العالم قبل بعثته وبعدها يرى الآثار العظيمة لشريعته ومبادئه ورجاله المؤمنين، وكتب قد قرأت في البحث الماضي ما قبل عن الرسول والرسالة من علماء العالم الأفذاذ ما يثبت لنا عظمة الرسول في نظر الأعداء فكيف بالمنصفين العقلاء. وإنا اليوم لنعيش في الصراع والضياع الذي كانت تعيشه الأمة قبل ظهور الرسول العظيم، فأتمنى قد مزقتها المحن، وفرقتها المصالح، وشردتها النكبات، وتخبئت في أرواح المذلة والانحطاط، فصارت وضيعة بعد عز ورفعة، تخلفت عن ركب الحضارة على الرغم من أسبقيتها في غاب العصور. ضعف في كل ميدان من ميادين الحياة حتى استضعفها الملعونون من أفرام الرجال، المشردون في كل بقاع العالم، بل لضفتنا ولعدم استمساكنا بحبل النجاة، وإن أمننا نفكر بالنجاة والخلاص وبحث عنه، وإنها أمة تندب حظها ومكاناتها بين الشعوب في وسط هذا الهشيم المحطم، وخلال هذه المتاهات المميتة وقد استهد الظلم على هذه الأمة

251
واحتدم الخطب حولها ؛ ولا بد لها من قارب النجاة واشراكه لفجرها ، وهما قد بلغ الأمر منتهءا والفجر بيدنا والدواء الناجح بين ظهرانيتا وقد جربته الأجيال الماضية فأتبت لنا حضارة عالمية شهد لها علماء الاجتماع ومخيم الفجر على ربعنا فصارت الأمة هي الأمة العظيمة في الدنيا الوجود ... 

فالفجر المطل هو كتاب الله العظيم ، والدواء الناجح هو الإسلام الحق الذي جاء به رسول الله ، والصالح الأول والأخير لهذه الأمة هو الرسول العربي محمد ﷺ شاء المكبلون بآواههم وآرائهم وعاداتهم أم أبوا وليس المصلح من يعيش بين ظهرانيتا وإن فكر وكتب ووعظ وخطب ، ولكنه الحي في قلوب الناس بآرائه وشخصيته وعظمه وهو الذي تتلمسه الفكرة العظيمة لتحيا به ويصفاته وتجعل له عمراً ذهنياً يكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها وما كان محمد إلا عمراً ذهنياً محضاً في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية تمر به آيات ومعاني القرآن لتنظر للناس سلوكاً مجدداً دائماً وإن لم يكن محمد ﷺ هو صاحب هذه الأفكار والمجدس لها ؛ فمن يرى في العالم يستطيع تجسيد المعاني العظيمة إذن .. وإن لم يكن محمد ﷺ هو المصلح الأول والأخير للأمة العربية ، فمن هو المصلح إذن .. وإذا لم يكن محمد هو الرسول والنبي والمصلح فما هو دوره في العالم ، ولما اهتم به العلماء والحكماء ودرسوا حياته بملايين المجلدات ، وما هي

252

http://kotob.has.it
الأسباب التي دعت علماء التاريخ والاجتماع والفلسفة لدراسة تشريعة ومبادئه العظيمة.

محمدكم يا عرب به نجاة أمتك...

وهو النبراس الخالد للإنسانية الضائعة، وهو الذي غير مجري تاريخ الإنسانية لصالحكم، فما بالكم قد تنكبتم طريقه، وسرتم في طريق لا تصلون به إلا إلى ضياعكم؟ فالله لم يكن محمد ﷺ في تاريخ العرب ما هو تاريخهم وماذا يحتوي.

فلا كان فرنسيًا لمجده وعظمته وساروا على نهجه، ولو كان بريطانياً لأقاموا لتعاليمه الجامعات ولجعلوا قانونه هو القانون العالمي.

فاسمعوا قول النبي العربي العظيم جواباً لسؤال قيل له: إن أمتكم ستستغنون بعدك فما المخرج من ذلك فقال: «كتاب الله العزيز الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزل من حكيم حميد، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله»، ومن ولي هذا من جبار فحكم بغيره قسمه الله، وهو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم، فيه خير من قبلكم، وتبين من بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل وهو الذي سمعته الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبًا يهدي إلى الرشد. فآمنا به، ولا يخلق على طول الرح.

٢٥٣
ولا تنقضي عبره ولا تطفى عجائبه ... 

وإذا لم يكن محمد ﷺ هو القدوة والنبراس فمن أمة العرب يستحق أن يكون المثل الذي يحتذى به في مسيرة البشرية الطويلة ...؟

من القدوة والمثل في عالمنا وفي أمتنا في الإنسانية ...؟ من هو الشعلة الأخلاقية المتجددة ، من يا ترى هل رجال الفلسفة ...؟

هل رجال المادة ... هل التائهون في أثانيتهم ...؟ هل رجال الحرب والدمار ... من هم قدوة العالم ...؟ هل تجار الشعوب ...؟ فمن يا ترى ...؟ أقول ويقول معي كل منصف من الحكماء والعلماء ولفلاسفة إنه محمد ﷺ هو الرسول والقدوة والمصلح .

أيها الإنسان الصامت عن اتخاذ قدوة لك في حياتك ، أيها الإنسان الذي يعيش على مبدأ الامبالاة في حياته ... أجعل الرسول قدوتك ... لتظفر بهدوء النفس من قلقها المميت ... أيها الإنسان الذي جعل قدوته فيلسوفاً أو عالماً ... وازن بين شخصية الرسول العظيم وبين هؤلاء الذين جعلتهم قدوتك ... 

إنه الرجل العظيم في أخلاقه ومبادئه ونسانيته وتشريعاته إنه

٢٥٤

http://kotob.has.it
الرجل الذي لا مثيل له في العالم بإقرار العظماء الذين يعرفون أنذاكهم بل نقول بصراحة وصدق: لا ند للرسول في عالم البشر.

وأنتم يا مسلمون.. أعيدوا للعالم صفات الرسول المجيدة في سلوككم واعرفوا حقيقة نبيكم لتعودوا إلى العزة والرفعة للعزة وлерسوله وللمؤمنين أجيبوا داعي الله.. لبوا نداء القرآن.. كونوا نسخة حية لكتاب الله.. فإنه لا نجاة إلا به؛ وبدراسة الواقع وتطابقه مع المجتمع المسلم الأول.. ولقرأ ما قاله (ليكونت دي نوي) في كتابه مصير البشرية، قال: لا خلاص للنوع البشري إلا بالعقيدة الصحيحة القوية الحية بمثلها العليا، العارفة بتقدم العلم، الخالية من التحامل على الذكاء.

وقال عالم أوريبي آخر: كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهام التاريخ.. وما أروع أن نقرأ قول الله تعالى: في دعوته لنا:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به وغفور لكم والله غفور رحيم.

وقال الرسول في خطبة له: وهي من أروع ما قال في أسلوب بليغ وفكر جامع يدل على شخصية فذة وإطلاع ثابت.
وحكمة بالغة فقال: «إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينته الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث». 

٢٠٦
الخاتمة

وإنني بعد هذا البحث الذي توصلت فيه إلى اليقين الدال عليه من البراهين العلمية والاستدلالات العقلية بأن هذا الإسلام العظيم بمبادئه السامية وأخلاقه الرفيعة، ودعوته الصادقة، ووحدانيته المتفردة، وأحكامه التشريعة الخالدة، وإنسانيته الشاملة، وحضارته المادية والروحية المتوازنة، كل هذا ليبدلون دلالة واضحة على صدق نبأ محمد ﷺ وما عبقريته إلا ظل من ظلال الرسالة التي اصطفاه الله لحملها وأدائها.

إن القرآن العظيم كتاب الله الناصح لجميع الكتب السماوية السابقة وهو الذي تكفل الله بحفظه ما دامت السموت والأرض ليبقى النبراس المضيء للبشرية في تحقيق سعادتها في الدنيا والآخرة.

وكل الدعوات الصادرة عن أفلام معاصرة لتحجيم دور الإسلام في المشاركة الفاعلة في حضارة المجتمع المعاصر ما هي إلا فقاعات تذوب بمرور الهواء عليها لبحطم فراغها، ولبيبم مقولاتها، وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيبقى خالداً مخلداً.

٢٥٧
والشكوك في مكانة محمد ﷺ قدماً وحديثاً ما هو إلا سهم مسموم في صدر هذه الأمة، ولا بد لنا في عقالة أن نفيّ دور النبوة وأهميتها في إيضاح مجمل القرآن، وتفسيره، وتبيان غامضه، وتبنيه مطلقه، وتفصيل مجمله فهو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي قال الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وطيعوا الرسول﴾ وقال جل ثناؤه: ﴿قل إن كنت تعبون الله فاتبعونه يجيبكم الله﴾ فسته لها مكاناتها الكبيرة في إسلامنا العظيم، منها تأخذ الأحكام المفصلة التي أجملها القرآن الكريم فهي ملزمة في حال الإلزام، ومستحبة في حال الاستحباب، والإباحة في حالة الاختيار، إن كانت صحيحة فطعنة الثبوت والدلالة.

ولا بد لنا اليوم من عودة رائدة في وعي ثقافي مدروس لإعادة النظر في دراسة السيرة النبوية لمراحل شبابنا كل حسب طاقته ليبقى القدوة والأسوة في مسيرتنا المعاصرة.

فرسول الله ﷺ هو نبي هذه الأمة، وهو الذي أوجد كيانها، ووحد طاقتها، وجمع كلمتها وما زالت سيرته ورسالته هما القادران لإعادة مجد هذه الأمة إن اتخذت القرآن الكريم دستوراً لها والسنة مسلكاً منهجاً في وجدانها والشريعة الغراء محكمة في حياتها وما نحن نجد تدهور الحضارات المادية الفارغة من الفطرة في المعسكر الماركسي والرأسلمالي لعدم توازن المادة والروح في وجدان الإنسان الذي لا يمكن أن يعيش إلا بجسد وروح.

٢٥٨
المراجع والمصادر

1. القرآن الكريم.
2. تفسير المراغي.
3. نفسية الرسول ﷺ. ليب الرياشي.
4. سيرة ابن هشام.
5. الأبطال. توماس كارليل دار الكتاب العربي.
6. فلسفة تاريخ محمد ﷺ. محمد جميل بيهم.
7. سيدنا محمد رسول الله ﷺ. عبد الله سراج الدين.
8. الرسول (حياة محمد ﷺ). ر.ف. بودلي.
9. نبوة محمد من الشك إلى اليقين. الدكتور فاضل السامرائي.
10. إظهار الحق. لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي مطبعة الرسالة.
11. أعلام النبوة. للماوردي.
12. إنجيل بناية.
13. تثبت دلائل النبوة. لقاضي القضاة عبد الجبار الهذاني.
14. دلائل النبوة. لأبي نعيم الأصبهاني.
15. زاد المعاد في هدي خير العباد. لابن القيم الجوزية.

209
16 - صحيح البخاري.
17 - صحيح مسلم.
18 - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين. لمصطفى صبري شيخ الإسلام.
19 - الوحي المحمدي. لمحمد رشيد رضا.
20 - مطلع النور. عباس محمود العقاد.
21 - عبقرية محمد. عباس محمود العقاد.
22 - محمد والقرآن. كاظم الشيخ سليمان آل نوح.
23 - حاضر العالم الإسلامي. شكيك أرسلان.
24 - محمد المثل الكامل. أحمد جاد الموالي.
25 - الإسلام كدليل. د. مراد هوبمان (سفير ألمانيا بالرباط).
26 - محمد رسول الله. د. عبد الحليم محمود.
27 - آنا والإسلام. الدكتور نظمي لوقا.
28 - خاتم النبيين. لأبي زهرة.
29 - صورة من حياة الرسول. أمين دوينار.
30 - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. عباس محمود العقاد.
31 - محمد رشيد رضا. مكتبة القدس بغداد.
32 - دراسة في السيرة النبوية. للدكتور عماش الدين خليل.
33 - السيرة النبوية. لأبي الحسن الندوي.
34 - حياة محمد. محمد حسين هيكل.

260
36 - قبسات من حياة الرسول . الشيخ محمد أحمد عساف .
38 - مصير البشرية . ليكونت دي نوي .
39 - الله يتجلى في عصر العلم .
40 - إعجاز القرآن . للباقلاني .
41 - تاريخ الأدب العربي . مصطفى صادق الرافعي .
42 - هل الله موجود ؟ مجموعة من الباحثين .
43 - وامحمداه . الدكتور نظمي لوقا .
44 - العلم يدعو للإيمان . كريسي موريسون .
45 - الإسلام والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل .
46 - القرآن والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل .
47 - ما يقال عن الإسلام . عباس محمود العقاد .
48 - العلم وانشتنين .
49 - كتاب الشمس . الدكتور جورج جامون .
50 - مع الله في السماء . الدكتور أحمد زكي .
51 - بناء الإنسانية . بريفولت .
52 - الدفاع عن الإسلام . لورافيشيا فاغليري .
53 - العقيدة والمعرفة . زيغريد هونكه .
54 - المنازعة بين العلم والدين . درير .
55 - تاريخ العرب . سيدلوت .
56 - حضارة العرب . كوستاف لوبن .

261
57 - شمس العرب تسطع على الغرب. زيفريد هونكه.
58 - حياة محمد. وليم موير.
59 - العواطف كأساس للحضارة. ج. ه. دينسون.
60 - روح المدينة. للغلاييني.
61 - الإسلام على مفترق الطرق. ليو بولد فايسي (محمد أسد).
62 - حياة محمد. واسنجهون أرفنج.
63 - الإسلام يتحدى. محمد خان.

262
الفهرس

الموضوع
الإهداء
التاريخ بمولد الرسول ﷺ .. حتمية المستقبل وتأكيد الذات 7
الدخل إلى البحث
الباب الأول
الفصل الأولـ العالم قبل البعثة
الفصل الثاني الجزيرة العربية قبل البعثة
الفصل الثالث لمحات عابرة من سيرة محمد بن عبد الله ﷺ
الفصل الرابع الوحي وماهيته ، وهل نحتاج إليه؟
الباب الثاني
الدليل الأول النبوة بين التصديق والتكذيب
الدليل الثاني التحدي ومعجزة الرسول
الدليل الثالث توجيه القرآن وعتابه للرسول
الدليل الرابع هل كان للرسول معلم
الدليل الخامس العصمة من القتل
الدليل السادس المغيبات والرسول
الدليل السابع التناسق الفكري في القرآن

263

http://kotob.has.it
الموضوع
الدليل الثامن القرآن والعلم
الدليل التاسع الحضارة والقرآن
الدليل العاشر التشريع القرآني والرسول
الدليل الحادي عشر المفكرون والرسول عليه الصلاة والسلام
يا عرب يامسلمون
الخاتمة
المراجع والمصادر